
جان دوست
رواية
بـاص أخضـر
يغـادر حلـب



عنوان الكتاب:
باص أخضر يغادر حلب
اسم المؤلف:
جان دوست
التصنيف العمري:
+17
الترقيم الدولي:
ISBN 978-9948-709-74-9
رقم إذن الطباعة:
MC-02-01-9994827

(هلْ لِأَنَّهُ لَيْسَتْ لَنَا قُبُورٌ فِي مِصْرَ أَخَذْتَنَا لِنَمُوتَ فِي الْبَرِّيَّةِ؟ ماذا صَنَعْتَ بِنا حَتَّى أَخْرَجْتَنا مِنْ مِصْرَ؟)

[سفر الخروج. الإصحاح الرابع عشر]

الفصل الأول

باصٌ أخضر كان يقف مع غيره من الباصات الخضراء مثل درب معشب نحيل يمتد بين أطلال بدت لانهائية غادر حي السكري ليصل بعد عشر دقائق إلى معبر الراموسة في الجنوب الغربي من مدينة حلب. كان المعبر قد سقط بيد قوات الحكومة منذ حوالي ثلاثة أشهر بعد معارك ضارية مع قوات المعارضة. تبع ذلك سقوط باقي الأحياء الحلبية الشرقية وصولاً إلى يوم الجمعة ذاك الذي صادف السادس عشر من كانون الأول عام 2016 حيث لم يبق في يد مسلحي المعارضة سوى حافلات خضراء أقلتهم وعائلاتهم وكثيراً من المدنيين إلى خارج حلب.

كان من المقرر أن يكمل الباص طريقه إلى حي الراشدين ثم يغادر حلب إلى مناطق سيطرة المعارضة في إدلب وغيرها لكنه، مثل باقي باصات القافلة، توقف في المعبر ليخضع ركابه للتفتيش من قبل عناصر جيش النظام. صعد إلى الباص جندي نظامي بلحية خفيفة يحمل رشاشاً. كان أول من صادفه من الركاب رجل يرتدي معطفاً فوق دشداشة وفي حضنه فستان عرس أبيض تناثرت فوقه صور عديدة. طلب الجندي منه إبراز بطاقته الشخصية، لم يرد. ظنه الجندي أصمَّ فرفع صوته:

– هويتك يا حجي.

لم يرد الرجل مرة أخرى، كانت عيناه جاحظتين تحدقان إلى جهة السائق فيما ارتسم على وجهه رعب لانهائي وتناثرت على شفتيه أشلاء صرخة ذبيحة.

– هويتك يا حجي، ما عم تسمع؟

كرر الجندي بنبرة أعلى. لكن الرجل بقي مع ذلك يحدق إلى جهة السائق مرعوباً. مد الجندي يده إلى كتف الرجل وهزه قليلاً ليوقظه مما ظنه شروداً عميقاً ففوجئ به يميل على جانبه الأيسر.

كان جثة بلا روح.

* * *

في ذلك اليوم أشارت كل التقاويم المعلقة على الجدران وكذلك المثبتة في أجهزة الهواتف النقالة الذكية وساعات اليد إلى العاشرة صباحاً من منتصف الشهر الأخير سنة 2016. وحدها تقاويم جدران الأبنية المهدمة كانت تشير إلى أيام القصف فيما أشارت ساعات اليد في معاصم القتلى تحت الأنقاض إلى لحظات الدمار الرهيبة التي طالت أحياء كثيرة في حلب وغيرها من المدن المفجوعة. كانت قد مضت على بداية الحرب في تلك الجمعة الباردة خمس سنوات عجاف وسبعة أشهر أشد عَجَفاً سالت فيها الدماء مدراراً دون أن يتمكن مجلس الأمن المخصي بمشرط الفيتو من صنع ضماد لإيقاف النزيف. ثم تنفس المدنيون الصعداء حين رعت روسيا وتركيا اتفاقاً يخرج بموجبه مقاتلو المعارضة وعائلاتهم من حلب مقابل خروج مدنيين ومقاتلين إلى جانب الحكومة من بلدتي كَفْرَيَّا والفوعة. أرخت البنادق سبطاناتها من التعب بعد أن كادت تذوب في أيدي القناصة ورماة الرشاشات الخفيفة والثقيلة لدى طرفي القتال ولكن الألم لم يهدأ. كان للألم والقهر دوي هائل ذلك اليوم لم يسمعه سوى أولئك الذي استقلوا تلك الحافلات الخضراء. فضحت العيونُ حين التقت بالعيون الحسراتِ الكامنة في القلوب التي ضاقت بها، هتكت نظراتُ الناس يومذاك، مسلحين ومدنيين، الأستارَ التي أخفت قهراً لم يكن الإفصاح عنه ممكناً بأية لغة من لغات الآدميين فانتعشت الذاكرة وأحاديث النفس حين صَمَتَ. سكتت الألسنة لتفسح للخيال الثرثار صمتاً يليق بسرد الفجيعة.

* * *

انحنى عبود العجيلي المكنى أبو ليلى، ليزيح قطعة وحل كانت عالقة بحاشية دشداشته لكنه انتصب من جديد دون أن يزيلها. تخيل أن تلك القطعة من طين حلب تريد أن ترافقه، ربما تريد هي أيضاً أن تنجو بنفسها، إنها ذكرى الرحيل القاسي، الشاهد على هذا اليوم الأليم فلتبق حيث هي ولترافقه في رحلة النزوح. بهذه الهواجس صعد إلى الباص وقال بنغمة فيها أثر واضح من جرح مؤلم:

– يا رب.

أطلق عبارته تلك بصوت خافت جداً وكأنه تعمد ألا يسمعها أحد، ثم ألقى نظرة خاطفة وجلس في المقعد الأول الذي كان فارغاً ينتظره. كان آخر من يستقل الباص بعد أن أخبره عنصر مسلح من المعارضة بأنه يحمل الرقم خمسين وعليه أن يلتحق بالركاب فوراً.

عَجَّت بقية المقاعد الصفراء بركابها التسعة والأربعين من المقاتلين والجرحى وبعض النساء الملتحفات بسواد جلابيبهن وبجانبهن أطفال صغار واجمون. بينما ازدحم الممر الضيق بين المقاعد بأكياس ملأها أصحابها على عجل ببعض الثياب وأشياء لا يقدر قيمتها أحد غيرهم من ألبومات صور وتحف صغيرة وبعض الوثائق. ملأ أولئك الركاب حقائبهم وأكياسهم بأمل العودة وألقوا فيها مفاتيح دورهم التي غادروها بعيون كسيرة لم تجرؤ على النظر إلى الوراء.

نظر العجوز الحلبي ذو اللحية المدورة والشماغ المنقط بالأسود عبر نافذة الحافلة إلى الخارج. رسمت الرسائل الدافئة القادمة من رئتيه حجاباً شفيفاً من البخار بينه وبين المنظر الخارجي وسرعان ما مسح بكم معطفه البخار المتكاثف على الزجاج البارد وأخذ يحدق بعينين يصرخ فيهما القهر إلى الجموع الحائرة فوق أنقاض البيوت.

كان الناس ينسِلون من الأحياء المهدمة المقفرة جماعات وآحاداً وهم يبحثون عن أية وسيلة تقلهم إلى أي مكان. كان المهم عندهم أن يخرجوا من أحيائهم التي تحولت في الأيام الأخيرة إلى جحيم مقيم ويغادروها إلى مكان أقل جحيمية، إلى مكان يكون فيه الموت أخفض كلفة على الأقل. هذا أقصى ما صار يتمناه الناس في شرق حلب تلك الأيام. لقد نسوا ترف تمني المستحيل السوري الذي صار يتمثل في سماء بلا طائرات تتسلى بهندسة الخراب ورسم الأنقاض، والحلم بشوارع لا تسقط فيها قذائف تفجر الأبنية وتطبقها على رؤوس ساكنيها. علم أهل حلب أن سقف التمنيات ينخفض في الحروب، بل يهبط السقف على التمنيات ذاتها حتى لا يبقى منها سوى تمني الموت بسرعة بدل العيش في رعب لا يمكن تحمله.

ناس كثيرون من مختلف الأحياء مثل كرم القاطرجي والفردوس والسكري وطريق الباب والكلاسة وباب النيرب وبستان القصر والمَيَسَّر والشَعَّار وصلاح الدين والليرامون وغيرها من الأحياء ودعوا بيوتهم أو البيوت التي هجرها أصحابها قبلهم فسكنوها، تقاطروا إلى نقطة تجمع الحافلات الخضراء وهم يحملون على رؤوسهم أكياساً لا يعرفون ماذا وضعوا فيها من هول الموقف وشدة الذهول. أطفال صغار كانوا يركضون خلف أهاليهم، يسقطون على الأرض ثم يقفون على أقدامهم الباردة ويستأنفون الركض وهم يشدون بأيديهم المرتجفة برداً ورعباً على ما يحملونه دون أن يبكوا أو يطلبوا العون من آبائهم الذين يتقدمونهم ولا يلتفتون إليهم.

تعلم الأطفال في السنوات الست العجاف أن الحرب لا ترحم الضعفاء. أدرك الأطفال أن البقاء على قيد الحياة يتطلب السير بلامبالاة بموازاة صنوها النقيض وهو الموت. بل إن إبعاد شبح الموت قد يكون بالاستهزاء منه وتقحم ساحاته. بقوا يلعبون في الشوارع آن كانت الطائرات الحربية تأتي وتدك البنايات، يصيخون السمع إلى أصوات القصف ويراهنون على نوع القذائف والصواريخ والقنابل. عج قاموسهم الصغير بمفردات قاسية. لم تعد السماء التي يعرفونها سماءً تمطر أو تثلج أو تتباهى بالغيوم وأسراب الحمام وأقواس قزح كما في الخيال الرومانسي، إنها فقط ساحة تتجول فيها تلك العفاريت المعدنية وتوزع الموت بقسطاس مستقيم دون تفريق بين مدني أو مقاتل أو حتى هرة تعبر الشوارع جائعة بلا مأوى.

رأى أبو ليلى عبر نافذة الحافلة فيما رآه طفلة تجرجر خلفها كيساً شفافاً يبدو واضحاً أنه محشو ببعض الثياب ودمى الأطفال. كانت الطفلة تبدو مستعجلة لا تلوي على شيء. تتجه دون توقف أو اهتمام بامرأة كانت تمشي متأخرة عنها وتسير متمايلة متعبة تحت ثقل حقيبة جلدية كبيرة صوب حبل النجاة الأخضر الذي رسمه ترادف الحافلات وسط الركام الكئيب. ظن أبو ليلى أن تلك المرأة المرهقة أمَّ الطفلة ثم قال في نفسه: ومن يدري! ربما ليست أمها.

فكر أبو ليلى وهو لا يحيد ببصره عنهما بصلة القرابة بين الطفلة وتلك المرأة التي تتلكأ في مشيتها وهي تعبر الأنقاض محملة بحقيبة جلد كبيرة. ليست أمها. هكذا قال أبو ليلى أخيراً لنفسه. فكم يتمت هذه الحرب أطفالاً وتركتهم لمصير مفجع! كم طفل خرج من تحت الركام مذهولاً بعد حفلة عربدة للعفاريت المعدنية في الأعلى، ليجد نفسه وحيداً ينادي على أبوين ابتلعتهما الأنقاض! كم طفلة كانت تعود من مدرستها جذلى وجديلتاها تلهوان مع الريح خطفتها رصاصة قناص؟ كم طفلاً مات رعباً قبل أن تقطع وريدَه سكينُ وحش بشري؟

"الحروب عمياء." فكر أبو ليلى وهو يتمعن في وجهها الصارم الذي يشي بقسوة ما عاشته من أيام. رأى فيها شبيهة حفيدته ميسون التي شطرتها إلى نصفين شظية برميل متفجر ألقته مروحية أمام باب البناية في حي مساكن هنانو، أكبر أحياء حلب الشرقية، قبل ثلاثين يوماً بالتمام والكمال.

* * *

كانت ميسون، التي دخلت عامها السادس يوم شطرتها الشظية قبل شهر، تلعب في الشارع مع قريناتها غير عابئات بأصوات القصف وتحذيرات الأهل ودعواتهم المتكررة بدخول البناية. عرف الأطفال بحسهم البريء أن داخل البناية مثل خارجها في الحروب القذرة. عرفوا أن الحروب لا تفرق بين نائم على سريره داخل بيته ومقاتل يحمل السلاح خلف المتاريس أو في الخنادق. لا تميز بنايةً يقطنها خائفون مرعوبون عن متراسٍ يقف خلفه مقاتلون. لا تميز الحروب طفلاً عن كهل، امرأة عن جندي أو حجراً عن بشر. رأى الأطفال أو سمعوا عن أبنية تحولت في غضون دقائق إلى أنقاض ومقابر جماعية لأطفال دعاهم ذووهم للاحتماء في الداخل، فلماذا لا يموتون وهم يلعبون؟ لماذا لا يموتون في فسحة الشوارع وملاعب الطفولة بدل أن يموتوا بين كتل الإسمنت المسلح تتهشم عظامهم الطرية كقطع البسكويت؟

"لَكْ ارجعي يا بنتي الله يخليك".

نادت ليلى على ابنتها الصغيرة فلم تعبأ بلهفة أمها وبقيت مشدودة إلى سحر الشارع الكئيب وملاعبة صديقاتها اللواتي أحيين عيد ميلادها الخامس قبل ساعة ثم خرجن وقد ضقن ذرعاً بالجو الخانق في الصالون الذي زينت جدرانَه بضعُ بالونات ملونة فيما كانت ثلاث شمعات صغيرة أطفأتها ميسون ما تزال على الطاولة.

لم تحظَ ميسون بعدد كاف من الشموع يناسب عمرها الجديد. وحين حاولت أن تعترض على ذلك لفَّت والدتُها ورقتين صغيرتين انتزعتهما من دفتر قديم على شكل شمعتين نحيلتين وأشعلتهما بجانب الشمعات الثلاث وهي تعدها بأكبر عيد ميلاد في العام القادم.

مسح أبو ليلى من جديد البخار الذي حجب مرة أخرى المشهد عن عينيه فرأى الطفلة الصغيرة ما تزال تجرجر خلفها كيس الثياب تغطي ملامحها الصرامةُ ذاتها التي لاحت بها قبل قليل.

* * *

عانت الأحياء الحلبية الشرقية من حصار لم يسبق له شبيه في تاريخها. شكى الناس في تلك الشهور السوداء من شح المواد الغذائية وندرة الضروريات وطالبوا فصائل المقاتلين المسيطرين على تلك الأحياء بفتح المخازن واتهموهم بالاحتكار. عاش المحاصرون في أزمة خانقة من انعدام الماء والغاز والكهرباء وغيرها من ضروريات الحياة مثل حليب الأطفال والأدوية. عَزَّ الماء حتى كاد الناس يحلفون به. أما الغاز فقد أصبح من مظاهر الترف وظهرت تسجيلات مصورة ساخرة لناس يحتفلون بجرة الغاز ملقين عليها الطرحة كأنها عروس تزف إلى عريسها. بينما صار الحصول على الخبز من المغامرات التي قد يفقد المرء حياته حين يخوضها. قضى العشرات نحبهم وهم على أبواب الأفران ينتظرون الحصول على ربطة خبز. كثيرة هي الأرغفة التي سقطت في دماء سالت من جراح حامليها فارتفع من الأرض بخار مزيج من بخار الدم وهباب الحرائق وبخار الخبز الطازج.

ارتفعت الأسعار من جهة وهبطت قيمة العملة الوطنية من جهة ثانية فصار الأمر فكي كماشة هصرت أعناق الفقراء خاصة. كان سكان حلب سيتحملون الجوع والمرض وحتى رعب الموت المجاني على المعابر وقصف الهاونات المتبادل بين حلب الشرقية والغربية ورصاص القنص من سطح بناية إلى سطح أخرى وغارات الطيران الحربي لولا أن الأشهر الأخيرة باتت خارج نطاق تحمل البشر. لم ترحم الحربُ المدنيين العزل الذين لا شأن لهم بها وربما رفضوها من أساسها وكان جل همهم أن يعيشوا في أمان دون النظر إلى طبيعة من يحكم البلاد.

بلغت الحرب في حلب مرحلة من القسوة يعجز عن تحملها الصخور. شبَّت نارها العمياء في كل ركن، والنار حين تشب في الغابة لا تميز بين شجرة محايدة وأخرى متمردة، لا تميز بين جذع نخر وآخر طري يرتفع في السماء يحمل أغصاناً وارفة الظل وثماراً يانعة. حين تدور أرحاء الطواحين لا تفرق بين حبة حنطة أو حبة زؤان. النار عمياء وكذلك الطواحين. وليس

عبثاً أن الحروب شبهت بالنيران تارة وبالطاحونة التي تدور رحاها لتطحن الأرواح تارة أخرى.

* * *

تقدمت الطفلة أكثر حتى غابت عن أنظار أبو ليلى، حجبها بضعة مقاتلين أسندوا رشاشاتهم الخفيفة إلى حجارة الأنقاض وشكلوا حلقة صغيرة مفتوحة حول صفيحة أشعلوا فيها ناراً من خشب انتزعوه من شبابيك جدار مهدم وصاروا يتدفأون عليها بصمت. لم تمر سوى ثوان قليلات حتى ظهرت الطفلةُ صارمةُ الملامح مرة أخرى. بدت أقرب إلى روح أبو ليلى وأقرب إلى ألمه الذي حاول أن يخفي ضرامَه عن أعين الجميع في ذلك الزمهرير.

* * *

كانت ميسون الحفيدةَ الأحبَّ إلى قلب جدتها نازْلِي، المرأة الكردية القوية من قرية شَرَّان بمنطقة عفرين. ولم يكن ذلك الحب إلا لأن الجد، أبو ليلى، كان يكرر دائماً أن عيني ميسون نسخة طبق الأصل من عيني نازْلِي.

– سبحان الخالق الناطق. كنت أظن يا نازْلِي أن الله لم يخلق عيوناً بجمال عيونك.

– راحت أيام الجمال يا أبو ليلى. راحت وولَّت.

كثيراً ما تكررت هذه المحادثة القصيرة بين الزوجين العجوزين ليعقبها صمت طويل ثم يسوط كل واحد منهما جواد خياله المرهق يقود عربة الذاكرة صوب أيام الصبا والحب.

* * *

لم يكن عبود، ابن عشيرة العجيل من قرية باسوطة جنوبي مدينة عفرين في الشمال الغربي من سوريا، قد بلغ الثامنة عشر من عمره حين اشتغل في نقل البضائع المهربة عبر الحدود بين سوريا وتركيا. وباسوطة قرية صغيرة كحفنة تبغ، مشهورة برمانها الشهي ومسترخية بسعادة على الضفة الشرقية بنهر عفرين وهي من القرى التي يعيش فيها أبناء بعض القبائل العربية جنباً إلى جنب مع الكرد منذ عشرات السنين. امتاز عبود بالرغم من صغر سنه بقوة بدنية واضحة ومهارة في نقل البضائع وسرعة في الوصول وقدرة فائقة في التعامل مع الجندرمة الأتراك الذين تشددوا في حراسة الحدود حتى أنهم لم يسمحوا لطنين الذباب أن يعبر الحدود المرسومة بأسلاك شائكة وحقول مزروعة بالألغام الفردية.

أتقن الشاب عبود خلال عمليات التهريب اللغةَ التركية إتقاناً تاماً جعله يتواصل مع الجندرمة بسهولة ويتفق معهم على مبالغ معينة لقاء تسهيل عبور البضائع فجراً. حصل على خرائط الألغام من أحد قادة الجندرمة وكسب ثقة التجار والأهالي في إعزاز وعفرين والمدن القريبة منهما.

تعرف الفتى المهرب من خلال عمله على عبد الحنان آغازاده والد نازلي، التاجر المتجول المنحدر من عشيرة كردية عريقة تسمى الشِكَاكْ وترتبط نسباً بعشيرة الشكاك المتوزعة على جغرافيا واسعة تتركز في مناطق كردستان في المثلث الحدودي التركي العراقي الإيراني. كان عبد الحنان آغازاده يستلم البضائع من المهربين ويأخذها ليبيعها إلى أصحاب المتاجر في عفرين وغيرها من المدن والبلدات القريبة من شرَّان. وسرعان ما توطدت العلاقة بين الشاب المهرب عبود والتاجر المتجول عبد الحنان فصار يزوره في بيته ويسامره في ليالي الشتاء وأصائل الصيف ليروي له قصص التهريب وطرائف المهربين مع الجندرمة الأتراك الذين يمكن أن يشتريهم المهرب بحفنة شاي كما ادعى عبود ذات سهرة.

أحب عبود ابنة شريكه التاجر الكردي نازلي ذات العيون الكحيلة والصوت الدافئ وصاحبة أجمل ردفين في شرَّان وما حولها من القرى. حين رآها ذات صيف لأول مرة في فناء الدار وهي تنقل أحمال القش، خفق قلبه لها. كانت ترتدي ثوباً طويلاً بنفسجي اللون تتوزع على ثنياته زهور بيضاء صغيرة وتضع على رأسها منديلاً زهري اللون يكاد لا يغطي ربع شعرها. سمعت الفتاة نداء أبيها: نازلي نازلي، فوضعت ما في يدها ثم أسرعت إلى المضافة الفسيحة التي تطل نافذتاها الغربيتان على سهل منبسط حتى نهر عفرين تزينه شجيرات الزيتون على مد البصر.

وقفت نازلي، الفتاة الناهد بالباب فحجبت نور الشمس الذي غمر الفناء في تلك الظهيرة، وقع قليل من ظلها على السجادة التركية البديعة الممدودة أمام الضيف المهرب. بدا الأمر كما لو أن ذلك الظل الجميل نقل طاقة هائلة من الشمس المختفية وراء الفتاة فخفق قلب الشاب بشدة كأنه في أول رحلة تهريب عبر الحدود المليئة بالألغام. لم يحد عبود

ببصره عنها. أسرته عينا نازلي الجميلتان ونظرتها الغامضة إليه وأسكرتاه. بقي صامتاً ولم يوقظه من سكرته سوى صوت عبد الحنان يأمر بالكردية التي كان يتقنها عبود:

– اعملي لنا كاستين شاي يا بنتي.

استدارت نازلي وذهبت لتختفي في بيت المونة. ذهل عبود حين رأى تلك المؤخرة الفتية يفضحُ تخلعَها نورُ الشمس الباهر. اهتز عرش خياله. أمسك بردفيها، عانقها من الخلف والتصق بها، قبض على ثدييها الضخمين، ذاب فيها، اتحد بها وقبل أن يتمادى خياله الفاجر نفض رأسه نفضة شديدة وكأنه ينثر ما دار فيها من خيالات غير مستساغة في حضرة مضيفه الكردي. لم ينتبه التاجر عبد الحنان لتلك النفضة، رمى بهدوء علبة التبغ الفضية لضيفه عبود بعد أن لف لنفسه سيجارة ثخينة وأشعلها ثم نفث دخانها وبدأ يكيل المديح للتبغ التركي.

* * *

في حادثة لا تتكرر إلا نادراً، تزوج المهرب الشاب العربي عبود العجيلي، من الفتاة الكردية نازلي التي تصغره ببضعة أعوام. بطبيعة الحال لم يكن أبناء عمومة نازلي راضين عن هذا الزواج:

– ألم يكن هناك عريس أنسب من عبود التات[1] لتزوجه بنتك؟

قالوا لعمهم عبد الحنان آغازاده من قرية شرَّان.

– عبود ليس من التات بل هو من أبناء العشائر، عرب العجيل يعني. ثم إنه خلوق وكسّيب وقبضاي ونحن رضينا به زوجاً لابنتنا.

رد الرجل الشكاكي الكردي ذو الطباع الحادة عليهم بجملته القاطعة تلك وأقفل الموضوع في وجههم. حاولوا كثيراً أن يقنعوه بفسخ الخطبة بحجة الاختلاف القومي لكن عبد الحنان ازداد عناداً وأصر على أن يتم الزواج. خاصموه لأجل ذلك عشر سنين ثم عادوا فصالحوه على مضض.

كان عبد الحنان نفسه متزوجاً من زُلفى، وهي امرأةٌ أمُّها من علويي لواء الإسكندرون الذين نزحوا إلى المنطقة بعد أن ضمت تركيا اللواء وسلخته عن سوريا عقب انسحاب الفرنسيين منه سنة 1939، أما ماوالدها فكان من عشيرة العميرات العربية التي يقيم بعض أفرادها منذ أكثر من قرن في بعض قرى جنوبي عفرين. لم يكن عبد الحنان يرى في أصل عبود العربي عيباً، تماماً مثلما لم يجد والد زوجته غضاضة في تزويج ابنته زُلفى من الشاب الكردي عبد الحنان.

أحب عبود زوجته نازلي كثيراً. صرف على حفل الزواج الذي صادف راس السنة أموالاً كثيرة. أحضر المطربين والعازفين من باسوطة وعفرين ليغنوا بالكردية والتركية إلى جانب مطربين عرب صدحت حناجرهم بالعربية في حفلة عرس ذكرها الناس طويلاً.

بعد مرور سنة ونصف على زواجهما، أي في عام 1967 أنجبت نازلي على التوالي عبد الناصر، ثم جاء عمر بعده، ورزق الزوجان بعد عمر بعاصم ثم ولدت نازلي آخر الذكور علي.

بعد ذلك انقطعت عن الإنجاب لمدة سبعة أعوام زارت خلالها أطباء كثيرين في عفرين وحلب ودمشق وغيرها حيث أكد لها الجميع أن حالتها طبيعية وأن عدم الإنجاب ليس بسبب مرض.

كانت نازلي مصرة على أن تنجب بنتاً تعينها حين يتقدم بها السن:

– الشباب راح يتجوزو ويلحقو نسوانهم. ما في أحن من البنات.

قالت لزوجها غير مرة.

في عام 1971 اشترى عبود بيتاً في حلب وانتقل إليه مع زوجته وأبنائه. بقيت نازلي تحلم بإنجاب بنت بعد أن اقتنعت أن امتناع رحمها عن الإنجاب ليس سوى تقدير إلهي وامتحان عسير عليها أن تخوضه بصبر فصارت تحج إلى مزارات الأولياء والقديسين من مختلف النحل والأديان في إعزاز وعفرين وحلب ونذرت نذوراً كثيرة ودأبت على أن تتصدق كل يوم جمعة على المكفوفين من حفظة القرآن على باب الجامع الكبير إلى أن جاء العام 1982 فحبلت وأنجبت طفلة جميلة كانت العنقودَ الأخير في كرمة العائلة.

كانت ليلى، أمُّ ميسون، آخرَ العنقود والبنتَ الوحيدة بعد أربعة صبيان.
أحب عبود العجيلي ابنته إلى أبعد الحدود، صار يفضلها حتى على أبنائه الذكور الأربعة وحين لم يعد أحد منهم موجوداً بجانبه في سنواته الأخيرة في حلب صار يرفض إلا أن يكنيه أصدقاؤه بأبو ليلى:
– اللي يحبني ما يناديني غير أبو ليلى.
قالها مراراً حتى غلبت كنيته الجديدة أبو ليلى وأصبح الناس لا ينادونه إلا بها.

* * *

لاحت الطفلة من جديد.
بدت قريبة جداً.
عيناها شهلاوان أقرب إلى الزرقة تماماً مثل عيني ميسون.
فمها حبة عنب ووجنتاها جمرتان، كأنها ميسون بشحمها ولحمها.
في عينيها أسى لا مثيل له إلا الأسى الذي كان موجوداً في عيني ميسون ساعة شطرتها شظية طائشة.
كان يتبعها هذه المرة رجل يمشي بعكازتين. يناديها بين فترة وأخرى، يبدو أنه يستوقفها، يطلب منها ألا تسرع في المشي وأن تنتظره. ربما هو والدها، ربما هو عمها، وربما هو جارها الجريح. وربما.... ولكن أين الأم؟ بل أين تلك المرأة التي كانت تسير خلف الطفلة ببطء وهي تتلمس طريقها حذر الألغام؟ ربما كانت تلك المرأة طيفاً لاح أمام عينيه الكليلتين، ربما هي أم الطفلة فعلاً وقد عادت لتأتي بحاجة نسيتها في البيت. كثرت الاحتمالات في خيال العجوز السبعيني الصامت وتنوعت. ففي الحروب لا يمكن أن تكون ثمة حقائق قاطعة. الحروب احتمالات أفضلها أسوأ من أخيه.
تسارعت أنفاسه. تراكم البخار من جديد على الزجاج البارد. مسحه مرة أخرى بكم معطفه. أراد أن يتابع المشهد الذي سحره.
غابت الطفلة.
ابتلعتها خضرة المعدن الكئيب في حافلة قريبة.
من جديد لاح على طرف الشارع المهدم أولئك المقاتلون الواجمون وهم يفتحون أكفهم الخشنة في اتجاه النار التي كانت تتحدث بصخب بالغ في صفيحة صغيرة ضاقت بثرثرة اللهيب.

* * *

حين سمع أبو ليلى شكوى حفيدته ميسون من عدم وجود شموع تشعلها في عيد ميلادها الخامس، قبل وجنتيها ثم مسح بيده الخشنة على شعرها بحنان وقال يواسيها:
– لا تبكي حبيبة جدو. ساعة وبتكون الشمعات عندك. روحي هلأ عند ستك نازلي.
كان القصف على أشده ذلك اليوم. هنا يسقط برميل متفجر تجود به سماء غاضبة، هناك تنفجر قذيفة هاون، وغير بعيد صليات من الرصاص تضرب هذا المبنى أو ذاك. حرائق ودخان وعويل وأصوات سيارات الدفاع المدني تجول الشوارع المقفرة.
حاولت ليلى أن تمنعه من الخروج لكنه قال في يقين تام:
– ما بيصير غير اللي الله كاتبو. ما بيموت إلا اللي خالص عمرو.
وخرج.

* * *

خرج أبو ليلى في ذلك النهار ولم يأبه بما حوله من قصف. قصد دكانة أبو سمعو، الدكانة الوحيدة التي بقيت شغالة طوال أشهر القصف. بقيت تلك الدكانة علامة الحياة الوحيدة بعد أن خربت الأسواق وترك معظم سكان مساكن هنانو بيوتهم نهباً للدمار والتعفيش والسرقات. كانت علاقات أبو سمعو قوية مع عناصر الجيش الحر والفصائل المسلحة الأخرى وحتى مع الجنود المرابطين على حواجز النظام. وكان يستغل فرصة فتح معبر بستان القصر الذي سماه الحلبيون معبر الموت فيذهب

إلى حلب الغربية ويعود محملاً بالبضائع الضرورية ليبيعها مستغلاً ظروف الحرب بأثمان خيالية.
– عندك شمع؟
– عندي كل شي. بس أنت تأمر يا حج عبود.
– ما يأمر عليك ظالم. بدي خمس شمعات لعيد ميلاد ميسون.
– حرب وقصف وعم تحتقلو بعيد الميلاد يا أبو ليلى؟ وين عايشين نحن؟ بعدين مانك خايف من الهيئة الشرعية؟
– شو هيئة شرعية ما شرعية. ليش ضل شي شرعي بهالبلد؟ مو جريمة نفرح قلب بنت زغيرة أبوها مفقود يا أبو سمعو. بعدين القصف ما راح يوقف إذا ما احتفلنا بعيد ميلادها. بدنا نفرح قلبها هي وأمها.
– بس ما بقيان عندي غير ثلاث شمعات.
– من هون لهون؟ دور بلكي بتلاقي.
بحث أبو سمعو في أرجاء دكانته التي عمَّتها الفوضى فلم يجد مزيداً من الشمع:
– الله وكيلك ما عندي غيرون. أنت بتعرف غلاوتك ومعزتك عندي يا حجي. الضرب ما هدي صر لو شهر. ما قدرت أروح أجيب بضاعة.

* * *

صعد سائق متجهمٌ الحافلة التي لم يبق فيها سوى مقعد شاغر بجانب أبو ليلى وأغلق الباب خلفه بقوة فجفل أبو ليلى جفولاً خفيفاً وشرد عن بحيرة خياله. وحين أدار السائق المفتاح واشتغل المحركُ ارتعشت الحافلة وصارت المقاعد تهتز اهتزازاً أنيساً خبره الركاب في حياتهم التي سبقت الحرب. دقائق طويلة كان الركاب يقضونها في التدخين في باصات الهوب هوب في كراجات المدينة منتظرين عودة السائق الغائب وحين كان يأتي أخيراً ويشغل المحرك ينزل من جديد ويغيب دقائق طويلة أخرى ليترك الركاب يلوكون الانتظار المرَّ في عهدة تلك الارتعاشة الطافحة بأمل الانطلاق الوشيك.
وفي ذلك اليوم الشتائي الكئيب، في تلك الساعة الباردة التي اكتظت فيها الأذهان بأفكار وأخيلة شتى وجد ركاب الباص الأخضر الصامتون في صوت المحرك الأليف أملاً ينقذهم من النفق الطويل المظلم الذي دخلوا فيه منذ شهور ولم يجدوا من يخرجهم منه إلى أن "بيعت حلب" كما صار يحلو للبعض أن يسمي اتفاق الروس مع الترك حيث أتيح بموجبه خروج العسكريين والمدنيين بأمان من معاقلهم وبيوتهم في أحياء حلب الشرقية.
بدا أن بعض الركاب، خاصة الأطفال، كانوا في غاية التعب والإجهاد فغفوا في مقاعدهم على وقع صوت المحرك الرتيب بينما بقي الرجال والنساء يحدقون من خلال النوافذ إلى أطلال البيوت المتراكمة على طرفي الشارع تعبر من خلالها الجموع التي ظلت تحتشد منذ الصباح وتصعد إلى الحافلات. كانوا عاجزين عن فهم ما يجري. ظنوا أن ما يحدث لهم حلم وما هو بحلم. تشابكت الأفكار في رؤوسهم وتراكمت بعضها فوق بعض تماماً مثل تلك الكتل الإسمنتية الهائلة لأبنية كانت فيما مضى سكناً لبعض بني البشر.

الفصل الثاني

كان الباص الصيني الأخضر رقم 111 ذو التسلسل المصنعي KLQ6118GQ من ماركة Long King الذي استقله العجوز السبعيني عبود العجيلي مع عشرات من المقاتلين وعائلاتهم يستعد للانطلاق حين هدرت أخيلة الركاب وانطلقت تبحث في دروب الماضي عن أجوبة للسؤال الذي أصبح ناقوساً لا يكف عن الطنين في ذلك الصباح الحلبي: لماذا حدث كل هذا؟

ما من إجابة تلقاها الناس. فالأجوبة صخور صماء خرساء بحاجة إلى أيد ماهرة وأزاميل دقيقة وحفر مستمر بإيقاعات معينة حتى تتحول إلى منحوتات، الأجوبة بحاجة إلى إعمال الفكر واستدعاء العقل. ولكن العقل، الذي يُفترض به القيامُ بنحت الأجوبة، يتنحى في ساعات الأزمات الكبرى. يلجأ محتمياً بظلال الجدران المهدمة وشقوق الأنقاض هرباً من هجير الحقيقة. لا عقل في الحروب. لا عقل حين تستيقظ الغرائز وتحكم الانفعالات. ما العقل إلا ورقة تصفر وتسقط في خريف الحروب. يُفسح العقلُ المجالَ لحصان الغريزة فيجمح كيفما شاء، يعدو هنا ويكبو هناك، يغير قليلاً ثم يُحجم، يصهل ثم يقف ويحرن ليثب من جديد.

* * *

انشغل ركاب الباص الموشك على الانطلاق بأخيلتهم التي أشعل نفخُ الألم جمرَها. بينما انشغلت أخيلتهم المحترقة ذاتها بنسج الوقائع السالفة على نول الذاكرة.

عاد أبو ليلى ليسرح من جديد في براري ذاكرته المجهدة فاستعاد صورة حفيدته وهي تنفخ في الشمعات الثلاث وفي لفافتي الورق التي أشعلتهما أمها بدل الشمعتين الناقصتين. كان وجهها يطفح بالبشر وهي تنفخ بقوة لتطفئ النيران اللطيفة بنفخة واحدة. ابتسمت لكاميرا هاتف أمها النقال ومالت برأسها ذات اليمين تستعد لمنح شاشة السامسونج الصغيرة شرف نقل تفاصيل وجهها البريء.

لم يأبه أحد من أفراد العائلة بأصوات القذائف في الخارج. بدت الأصوات بعيدة وامتزج صوت انفجارها بصوت انفجار البالونات في أيدي صديقات ميسون وهن ينفخن فيها. بعد دقائق من الهرج أصر الأطفال على الخروج إلى الشارع هرباً من ضيق الصالون وصرامة الأم.

– طيب اطلعو بس لا تبعدو كتير حبيباتي. إي؟

اشتد القصف ذلك النهار. حامت مروحيات عديدة وعربدت في سماء الحي دون أن تتمكن الرشاشات الثقيلة ولا صيحات الله أكبر من إصابة أي منها.

خرجت ليلى عدة مرات ونادت على ابنتها ميسون طالبة منها العودة إلى البيت بسرعة. اقتربت أصوات الانفجارات أكثر وارتفع معها لغط الأطفال الذين كانوا يلعبون في الشارع دون أن يلبي أحد منهم نداء الأهل الخائفين فيعود إلى بيته. لقد اعتادوا على هوامش الحرب وتفاصيلها، تماهوا مع مفرداتها وأصبحوا جزءاً من قاموسها الوحشي، اعتادوا على الموت الفجائي الذي أزهق أرواح كثيرين من أترابهم ولم يعودوا يأبهون بتحذيرات الأهل. لم يعودوا يصدقون أن الداخل أرحم من الخارج.

– لك ارجعي يا بنتي الله يخليك. شبعتو لعب أنت ورفقاتك. شو طرشا إنت؟ ما عم تسمعي صوت الضرب؟

صاحت ليلى بصوت يقطر خوفاً.

لم ترد ميسون. ربما لم تسمع أمها بسبب دوي انفجار برميل ألقته مروحية على الحي. في تلك اللحظة ذاتها اتخذت شظية حادة طريقها إلى مجموعة الأطفال. كانت شظية عمياء كأمها الحرب طارت بسرعة هائلة باتجاه ميسون فشطرت جسمها الطري من الجذع إلى نصفين. هكذا ببساطة. راقبت الأم المفجوعة المشهد ذاهلة. لم تصدق ما تراه. ظنته مشهداً من فيلم رعب، كابوساً ثقيلاً من الكوابيس التي اعتادت أن تعيشها بعد خطف زوجها الطبيب فرهاد على يد داعش.

لم يوقظها من ذهولها الدمُ الذي أراقته الشرايين المبتورة في جسد ابنتها. لم يوقظها صراخ الأطفال الباقين وهروبهم في كل

اتجاه ثم احتماؤهم بحجارة الأنقاض. بقيت تحدق في الشارع الذي خلا الآن تماماً إلا من جثة طفلتها المشطورة الممددة على الإسفلت البارد. غامت الدنيا أمام عينيها. لاحت في الغبش الكثيف خمسة شموع مطفأة يعلوها خيوط دخان أبيض ثم لم تعد ترى أو تسمع شيئاً. أطبق الصمت الثقيل على الكون كله.

* * *

قبل أن تلقي المروحية برميلها المتفجر كان أبو ليلى عند حاجز من حواجز إحدى الفصائل المسيطرة على الحي يناقش مع عناصر الحاجز أمر شح المواد الغذائية وتأثير الحصار على معيشة السكان. أخبرهم فيما يشبه التحدي أنه يعرف أين تختبئ أطنان مواد الإغاثة وأن لا عدالة في توزيعها على المحتاجين. ثم رفع صوته المبحوح، كأنه يجهش بالبكاء:

– الحرامية منا وفينا. حاميها حراميها. الناس وين بدها تروح يا إبني؟ ها؟ قولو لي الناس وين بدها تروح؟

طلب منه شاب مسلح ذو لحية كثة أن يهدأ ويذهب إلى بيته قائلاً إن هذه الأمور أكبر منه. ثم أردف زاجراً:

– الدنيا حرب وأنت ما عندك مشكلة غير بطنك؟ أحسن شي تنضب ببيتك.

أحس أبو ليلى بحلقة نار تطوق عنقه، شعر بحنجرته مشلولة كأن رصاصة قناص أصابتها فبلع الإهانة مع ريقه المُرِّ وقبل أن يرد على الشاب المسلح سمع صوت انفجار البرميل قريباً من بيته. خفق قلبه. ترك المسلحين عند الحاجز وركض بسرعة صوب البيت.

* * *

ظل الباص واقفاً في مكانه يرتعش كالمحموم منتظراً كغيره من الباصات أمر انطلاق القافلة الخضراء صوب القسم الغربي من حلب والذي بات يعرف بمناطق النظام، لتكمل طريقها فيما بعد إلى إدلب حسب الاتفاق المبرم. لم تكن أخيلة الركاب أقل ارتعاشاً من الحافلة التي استقلوها. فحين يخلد المرء إلى الصمت تبدأ الذاكرة بالثرثرة. لم يتهيب ركاب الباص الأخضر من المجهول الذي ينتظرهم في نهاية الرحلة بقدر ما خافوا من الطريق الذي سيوصلهم إلى ذلك المجهول. الطريق المحفوف بالقناصة والألغام والانفجارات والأمزجة النارية لعناصر الحواجز المختلفة. ففي الحرب الملعونة تلك لم يكن من قيمة لأي اتفاق مبرم حتى لو ضمنه الكبار.

استرجع كل واحد في مقعده ما مضى من الذكريات التي تسابقت وهي ترتاد بحيرة الخيال فسبقتها الأقرب فالأقرب، ذكريات الحرب والحصار والثورة والفصائل المتصارعة على المال والنفوذ، قصص الخطف والاختفاء القسري، حكايا الأرامل اللواتي وجدن أنفسهن فجأة فرائس بين أنياب مجتمع لم يهتم بضحايا الحرب، آهات الأمهات الثكالى ونحيبهن في الأزقة وراء النعوش، الأيتام، المفجوعين، المعتقلين وروايات التعذيب التي لا يمكن تصديقها لهولها، قصص الاغتصاب التي تكتم عليها المجتمع وتكتم عليها ضحاياها قبل الكل، النزوح وعبور الحدود ثم تجشم مخاطر البحر وأهواله والموت غرقاً أو الاستعصاء في مخيمات متناثرة في أقسى البقاع وأقصاها، وفرة السلاح وشح الغذاء وكثيراً من الأمور ضاقت بها ذاكرات أولئك المسافرين الصامتين.

هاج بحر الحزن فغمرت أمواجُه روحَ عبود العجيلي فبقي يحدق صامتاً عبر زجاج نافذة الباص إلى مشاهد تتبدل بين لحظة وأخرى. غابت الطفلة الصغيرة التي كانت تجرجر الكيس المحشو بالثياب ودمى الأطفال عن المشهد لكن ذلك اليوم الفاجع لم يغادر خياله الواهن الذي استفزته صور النزوح.

حين وصل إلى رأس الحارة عرف أنها أصيبت. سمع صوت سيارة الدفاع المدني ورجالاً بخوذات بيض يهربون في كل الاتجاهات، بعضهم ينحني على كومة أنقاض يسترق السمع إلى أية علامة للحياة المدفونة هناك بينما يهرب اثنان بحمالة جرحى باتجاه بوابة بناية ارتفع منها عويل مر. لاح أربعة رجال يحملون ما بدا أنه جريح من المقاتلين. كان الجريح ملفوفاً ببطانية مبقعة بالدم. ازداد قلب أبو ليلى خفقاناً وصار يدعو ربه ألا يكون أحد من بقية عائلته قد أصيب بمكروه.

– يا رب لطفك. يا رب الطف بنا.

ظل يدعو ويتمتم بما حفظه من أدعية وصلوات مسرعاً خطوه ما أمكنه ذلك حتى وصل إلى الشارع الذي تمددت فيه حفيدته المشطورة إلى نصفين. عرفها من ثوبها. ارتدته ميسون صباح ذلك اليوم، يوم عيد ميلادها الخامس وصارت تتباهى

به وتستعرضه أمام جدها:
– شوف جدو ما أحلى فستاني! ماما اشترت لي ياه من منبج.
حدق في عينيها، كانتا تلمعان مثل عيني زوجته المتوفية نازلي. ضمها إلى صدره، قبل عينيها، وضع في يدها مئة ليرة وخرج.
لم يعلم لحظتها أنه يقبل حفيدته الأحب إلى قلبه آخر مرة.
ركض كالملسوع صوب الجثة الصغيرة. حملها بسرعة. وجدها خفيفة للغاية. اكتشف أنه يحمل نصفها الأعلى فقط، أي جذعها المبتور عن الساقين. كانت شراييها ما تزال تنز. دم طازج ساخن يعلوه بخار يرسم في الهواء المخنوق برائحة البارود صورةَ غول الحرب نزفته الشرايين على دشداشته وفستان ميسون. صرخ من الهول بكل ما في حنجرته الكليلة من صوت:
– يا إسعاف. يا إسعاف.
اقترب منه شاب ملتحٍ يعتمر خوذة بيضاء وقال بهدوء:
– البقية في حياتك يا حجي. البنت استشهدت.

* * *

شعر أبو ليلى بحبة قلبه يعصرها مارد بين أصبعيه العملاقتين. وخزته آلام حادة في الجانب الأيسر من صدره. مد يده اليمنى وصار يضغط بها ويتحسس صدره كأنه يبحث عن موضع الألم ثم تنهد مستذكراً تلك اللحظات المرعبة يوم قصفت إحدى المروحيات شارعهم ببرميل متفجر قبل ثلاثين يوماً.
يومذاك كانت أغلب سيارات الدفاع المدني قد خرجت عن الخدمة ولم يبق منها في الحي سوى بضع سيارات لا تفي بالحاجة مع اشتداد القصف وكثافة الغارات الجوية. أصبح المسعفون مثل غيرهم لقمة سائغة للبراميل والقصف والقنص. قتل منهم كثيرون أثناء تأدية مهامهم فباتوا بحاجة إلى من يسعفهم أو ينقل قتلاهم ويدفنهم في أقرب أرض كما جرت العادة مع الضحايا المدنيين. وبسبب تفانيهم وخطورة عملهم في تلك الظروف بالغة القسوة فقد ذاع صيتهم من خلال ما نشرته وكالات الأنباء وصفحات التواصل الاجتماعي من صور وفيديوهات تظهر لحظاتهم الأكثر التصاقاً بالحس الإنساني المجرد من السياسات وقذارات الحروب. أصبحوا كذلك محبوبين من سكان الحارات الشعبية ويعاملون باحترام بالغ معاملة الأطباء والجراحين يركضون من هنا إلى هناك يتتبعون أثر الموت في الشوارع وتحت الركام. لم يكونوا بحاجة لمن يهاتفهم أو يستدعيهم إلى الأماكن المقصوفة، كانوا يأتون حين يسمعون صوت قنبلة سقطت للتو من السماء، يخاطرون بحياتهم تحت القصف لينقذوا محصورين بين الأنقاض أو ينتشلوا جثث الأطفال والنساء التي طمرتها الكتل الإسمنتية الهائلة.
– لا إله إلا الله.
صرخ أبو ليلى حين سمع نعي ميسون من فم المسعف الشاب وبقي حائراً لا يعرف ماذا يفعل.
اقترح عليه المسعف أن يضع الجثة المبتورة على بطانية كان قد مدَّدها قريباً من الساقين المفصولتين عن جذع ميسون. فعل العجوز أبو ليلى ما سمعه وحانت منه التفاتة إلى باب البناية فوجد ابنته ملقاة على الأرض. صرخ جزعاً:
– ليلاا.
وركض إليها. ظنها هي الأخرى قتيلة مثل ابنتها لكنه لم يجد عليها آثار أية جراح. كانت تتنفس وقلبها ينبض. نادى على المسعف الشاب ورجاه أن يأتي إليه. كان المسعف ما يزال مشغولاً بجمع أشلاء الطفلة الصغيرة ومدها على البطانية. وحين انتهى من عمله نادى على رفاقه لينقلوا الطفلة إلى المركز الطبي القريب بينما يقوم هو بإسعاف المرأة الملقاة أمام باب البناية.
– اتطمن حجي. ما فيها شي. غايبة عن الوعي.
قالها المسعف ثم أخرج منديلاً بلله بقليل من مادة كحولية ومسح به وجه ليلى الشاحب المرعوب.
فتحت ليلى عينيها، قرأت الحزن العميق في عيني أبيها الدامعتين ورأت وجهه الذي يفيض بالأسى، رفعت رأسها قليلاً ونظرت إلى الجهة التي كانت ميسون ممددة فيها وصاحت:

– وينها ميسون. بابا وين ميسون؟
– ميسون ماتت يا بنتي. ميسون صارت من طيور الجنة.
أجابها والدها وهو يرفع رأس ابنته إلى حضنه.

* * *

لاحت في البعيد خوذتا مسعفين من الدفاع المدني يحملان ما بدا أنه أحد أحدى جرحى المقاتلين على نقالة بسيطة ويمشيان به صوب إحدى الحافلات المنتظرة على طول الشارع. حاول أبو ليلى أن يستجمع أفكاره التي تبددها ارتعاشات الحافلة واللغط الذي بدأ يتصاعد داخلها من الركاب المتبرمين. دار حديث متشنج بين راكبين على مقعدين متباعدين أحدهما يحمل بندقة خفيفة، تراشقا بالكلام بنبرة منخفضة ثم سرعان ما رفعا النبرة بقصد أن يسمعهما كل من في الحافلة:
– متى سيمشي الباص؟
– وليش مستعجل على الخروج؟ خيفان لتموت؟
– أنا ما بخاف إلا من رب العالمين. لا تكبر الكلام معي.
– أنا ما كبرت الكلام. أنت اللي تطلع بدك بسرعة. بعد ما دمرتموها، بعد ما ساويتوها خرابة بدكون تطلعوا؟ بكير كتير. لسا في كم حارة ما تدمرت. ليش العجلة؟
– نحن دمرناها؟ أنت تحكي بلسان النظام. قل لي مين حضرتك وشو شغلك وشو موقعك من الإعراب؟
– أولاً لا تنسى أنك تستقل حافلة من حافلات النظام. يعني باص أخضر صاروا يعيرونكم فيه. ع الباصات يا عرصات. سمعت شي مرة هالجملة؟ ثانياً تسألني مين أنا؟ أنا إنسان عادي. أنا مواطن راح بيتي ومات أهلي والآن أنا في طريقي إلى المجهول. شو استفدنا من هاي الحرب؟ أنا بعمري ما كنت مع النظام. ولا كنت مع دخولكم إلى حاراتنا لتجعلوها متاريس لكم. أنت ومن معك لا حميتونا ولا انتصرتو. وهاي عم تطلعو تاركين البلد بعد ما ضل فيها حجر على حجر.
– قلت لك لا تكبر الكلام. وإلا هشمت رأسك.
– وأنا أقول لك أنا خسرت كل شي. أنا أخرج الآن من مدينتي وقد فقدت أهلي وبيتي. ما عاد يهمني إن خرجت بروحي أو بقيت فيها أو حتى انقتلت بيدك أو بيد عنصر من النظام. فيك تقضي عليّ بطلقة من بندقيتك إذا حبيت اضرب! اضرب هون بالقلب اللي ما ضل فيو مطرح للوجع.
ومد يديه بغضب إلى ياقة قميصه المجعد، فتح بضعة أزرار فبان شعر صدره الأشيب الكثيف وسرعان ما صرخ فيه المسلح:
– اخجل على حالك. ع الأقل اخجل من شيبتك، في معنا نسوان.
– مو لا يكون في معنا رجال بالأول؟
حين وصل النقاش إلى هذه النقطة من التوتر تدخل بعض الركاب وطالبوهما بالهدوء وتعالت صيحات خافتة: "صلوا ع النبي يا جماعة. استهدوا بالله والعنوا الشيطان. خلوا اليوم يمر على خير. بيكفينا اللي فينا".
كان أحدهما مسلحاً من إحدى الفصائل المقاتلة، يحمل بندقية آلية في حضنه وتخفي ملامحَ وجهه لحيةٌ "منجَّرة" بعناية، يلف على رأسه منديلاً أسود يكاد يغطي عينيه. أما الثاني فكان رجلاً مدنياً في أواسط العمر، نبتت على وجهه لحية يمكن تقدير عمرها بأسبوع. لحية خفيفة غلب عليها الشيب غطت وجهه ذا الملامح الخشنة المتجهمة، فيما بدت عيناه غائرتين تفشيان كثيراً من القهر والغضب المكبوت والعجز والخوف ومشاعر مختلطة غامضة.
لم يتكلم السائق الذي شغلته في تلك اللحظة لفافة تبغ، بل اكتفى بإلقاء نظرة خاطفة عبر المرآة الداخلية المستطيلة إلى الركاب المتوترين وبدا أنه لا يهتم بما جرى وسيجري داخل الحافلة. سحب آخر نفس من لفافة التبغ ونفث دخانها عبر النافذة نصف المفتوحة إلى الخارج ثم وضع ما تبقى من العقب بين أصبعي الوسطى والإبهام من يده اليسرى ورماه بعيداً ورفع زجاج النافذة من جديد.
لم يستغرب أبو ليلى تلك المشادة التي دامت بضع دقائق. لقد كان الجميع متوترين متشنجين. ولم يكن أمر خروجهم من ديارهم بالأمر الهين. كما أنه كان شاهداً على ما هو أسوأ من تلك المشاجرة وأقسى منها بكثير حين كان يمر من الحواجز

الكثيرة. استأسد بعض عناصر الحواجز من مسلحي بعض الفصائل المقاتلة في حلب على المدنيين وبدأوا يأخذون منهم الإتاوات ويفرضون عليهم ما تأباه فطرتهم البسيطة خاصة على يد عناصر داعش. ذاق الناس صنوف القهر والموت قادمة من السماء والأرض وحتى من تحت آباطهم فضاقوا بها ولم يجدوا مخرجاً منها سوى اللجوء إلى المهربين. نجح بعضهم في الخروج ليس فقط من حلب الشرقية بل تجاوزوها وعبروا حدود بلادهم التي تأكلها النار إلى بلاد أكثر أمناً مقابل دفع مبالغ طائلة من المال. باع بعض الناس بيوتهم بينما باع الذين دمرت بيوتهم ما يملكونه من ذهب ومجوهرات ليمولوا بها رحلة موت محتمل عبر البحار والغابات وصولاً إلى أوربا.
دون أن يلتفت أبو ليلى إلى مصدر المشاجرة، ضغط بصدغه على زجاج النافذة البارد يعصر ليمونة الذاكرة ويحاول استعادة تركيزه والبحث عن لحظات كادت تخطفها ضوضاء الحافلة وتغور في قعر الخيال.

* * *

رحلت ميسون.
قتلتها شظية عمياء صنع لها الكرملين عكازاً من فيتو تهتدي به في دروب حلب وغيرها من المدن التي لم يستطع أحد أن يظلها بمظلة الأمن ومجلسه الكسيح.
مات أطفال كثيرون وسحقتهم كتل إسمنت سقوف بيوتهم وجدران مدارسهم التي انهارت فهشمت عظامهم الهشة الطرية. ماتوا مختنقين بالهواء الذي سممته طائرات يقودوها طيارون من بلادهم ذاتها قبل أن ينضم إليهم طيارون من بلاد الفيتو أيضاً، ماتوا بقصف الفصائل المسلحة العشوائي لمناطق سموها مناطق النظام، كانت الصواريخ عمياء لم تفرق بين جندي من جنود النظام أو طفل هناك يعود من مدرسته، ماتوا ذبحاً بسكاكين الحقد الطائفي وحراب ميليشيات مستوردة للدفاع عن أمن البلاد وعزتها. ماتوا أيضاً بصواريخ أطلقتها طائرات العم أوباما الذي اتخذ رسم الخطوط الحمراء على خارطة الوجع السوري هواية له، قبل أن يسارع إلى مسحها دون أن تهتز في البيت الأبيض ستارة من الستائر التي تستر عورات سياسة قاطنيه.
وبالرغم من غزارة الصور التي بثتها قنوات التواصل الاجتماعي وآلاف الأفلام الوثائقية عن عمق الجرح السوري فقد عميت عيون المجتمع الدولي عن رؤيتها واكتفى أصدقاء الشعب السوري، هكذا سموا أنفسهم، بمتابعة سواقي الدم الذي سفحته جراح أولئك الأطفال بصمت وربما، من يدري، بمتعة فائقة.
لم يلتفت المارة في شوارع حقوق الإنسان ولا التفت الموظفون المستعجلون وهم يتنقلون بين مكاتب محكمة العدل الدولية والمحكمة الجنائية في لاهاي إلى الدم الذي نفر من أثر خطواتهم الواثقة، لم ينتبهوا إلى الضحايا الذين صرخوا وتحدثت آلامهم بكل اللغات. صُمَّت الآذان عن حشرجات الأطفال التي ملأت الدنيا لحظة اختنقوا بالغاز وعميت العيون عن وميض جراحهم النازفة، تظاهرت العيون بالعمى وادعت أنها لم تشاهد مجازر كانت أشد وضوحاً من شمس تموز وأكثر صخباً من شلال يسقط من شاهق.
ماتت ميسون.
أطفأت الحربُ شمعاتِها الخمسَ فعادت أمها خرساءَ مرة أخرى بعد أن رأت وجه ابنتها القتيلة وقد ارتسم عليه سؤال أكبر من وطن وأقسى من حرب. فقدت ليلى النطق ثانية عندما مزقت أنياب الفيتو القادم من نيويورك ميسونَ الصغيرة وحولتها إلى جثة هامدة في المشفى الميداني القريب الذي تكدس في ردهاته نزلاء، مدنيون ومقاتلون، ملفوفون ببطانيات متسخة يئنون من آلام جراحهم المتعفنة.

* * *

الفصل الثالث

في مقصف كلية الطب، الذي يسميه طلاب جامعة حلب المقصف المركزي، يلتقي طلاب كثيرون من مختلف الكليات. فهذا المطعم الذي يقدم وجبات سريعة، صندويشات جبنة وسجق وشاي وقهوة وعصائر، يطل على ساحة الجامعة ويقع في مدخل الحرم الجامعي أسفل مبنى كلية الطب ومقابل كلية الآداب وقريباً جداً من المشفى الجامعي، وهو بذلك أول ما يلقاه الطالب حين وروده إلى الجامعة ونزوله من السرافيس[2] والباصات والتكاسي في ساحة الجامعة.

في ذلك المقصف ذي المقاعد المكسورة والطاولات المليئة بعبارات الغزل وتواريخ مختلفة تشير إلى لقاءات عشاق صغار، التقى فرهاد طالب السنة الخامسة في كلية الطب بالفتاة ليلى طالبة الأدب الإنكليزي في سنتها الأخيرة.

حدث ذلك في نهاية نيسان عام ألفين وخمسة. كان يوماً ربيعياً لطيفاً ودافئاً. جلس طالبان من طلاب الجامعة إلى طاولة بجانب نافذة قريبة من باب المقصف تطل على ساحة الجامعة التي ليست سوى تقاطع طرق تؤدي إلى بعض أحياء حلب وتضم عدة مواقف لحافلات النقل الصغيرة والكبيرة وسيارات الأجرة الصفراء. مرت فترة صمت أخلد فيها كل واحد منهما إلى خيالاته بعد نقاش هامس قصير عن تأثير مقتل رفيق الحريري على مستقبل البلاد خاصة بعد أن خرجت قوات الجيش السوري من لبنان.

بنى بعض السوريين آمالاً عراضاً على الحدث ورأى فيه آخرون بداية الخلاص من الجمهورية الوراثية واستبداد الحزب القائد للدولة والمجتمع. أيقن العديد من شرائح المجتمع أن الخلاص من القبضة الأمنية لن يكون إلا بفعل خارجي كما حصل في العراق. لقد انسدت الآفاق أمام السوريين بعد وأد ما سمي في أدبيات المعارضة ربيعَ دمشق وهي الفترة القصيرة التي شهدت حالة من الانفتاح بعد حزيران عام 2000 حين وضع الرئيس الشاب مفاتيح قصر المهاجرين في جيبه وريثاً لأبيه العتيد الذي حكم البلاد بيد من فولاذ على مدى خمسة وثلاثين عاماً. أقفلت الأجهزة الأمنية المنتدياتِ التي استقطبت جمهوراً واسعاً بعد أن كسر أفراد مثقفون من الطبقة الوسطى أغلال الصمت المعلقة إلى أرجل وأعناق السوريين مستفيدين من غض نظر السلطات، الذي تم تفسيره فيما بعد على أنه إجراء تهدف السلطة منه إلى كشف المعارضين الحقيقيين وزجهم في السجون وحدث ذلك فعلاً. ماتت لجان إحياء المجتمع المدني قبل أن تتمكن من إحياء المجتمع المدني وتنفخ الروح فيه واتضح أن القبضة الأمنية التي ارتخت قليلاً كانت تتوخى من وراء ذلك إحكام الطوق من جديد حول حراك الناس السلمي وكتم أنفاسهم والزج بناشطيهم في السجون والمعتقلات.

عاش السوريون حالة من الترقب والهلع ممزوجاً ببعض الأمل بعد مقتل الحريري وأصبحوا يتوقعون كل لحظة تدخلاً دولياً لتبديل نظام الحكم في البلاد. وبالرغم من توقهم للانعتاق والحرية فقد خافوا التدخل الخارجي بعد ما شاهدوه من فوضى عارمة عمت العراق بعد سقوط التوأم البعثي في بغداد نيسان عام 2003.

وما كان حديث الطالبين الجامعيين ذلك اليوم، طالب الطب البشري فرهاد وطالبة الأدب الإنكليزي ليلى، سوى همس تحول بعد لحظات من بدئه إلى صمت لم يكسره حتى زعيق أبواق السيارات العابرة من ساحة الجامعة ولا صخب الطلاب الغادين والرائحين. لم يتحدثا في السياسة كثيراً ولا صدعا رأسيهما بموضوع الحريري بأكثر من جملتين افتتح بها الطالب الخجول فرهاد الحديث. كان ذلك لقاءهما الأول الذي مهدت له أخت فرهاد، الطالبة زينب التي كانت في سنتها الثالثة بكلية الاقتصاد والتجارة لتعرفه على ليلى العجيلي، الفتاة الحلبية الرزينة حسب قولها، بعد أن أقنعته أنها العروس الأنسب له من بين مئات الطالبات.

– بنت حلوة. رزينة. وأخواتها أكراد.

قالت زينب، أخت فرهاد، وهي تبتسم ابتسامة ذات مغزى.

– حلوة ورزينة صفتان كافيتان يا أختي زينب. شو بدي من أخواتها؟

رد فرهاد بابتسامة خجلى وخرج مسرعاً لكيلا تفوته محاضرة علم الجراحة.

* * *

بقيت ليلى تحدق في عيني زميلها الكردي القادم من مدينة منبج والذي لا يعرف إلا بعض الكلمات الكردية، فيما استقرت نظرات فرهاد على السلسلة الذهبية الجميلة المنتهية بلفظ الجلالة الذي زين فيما ظهر من جيد زميلته.
– وين راح فكرك؟
– الله.
– شو؟
– على العرش استوى.
انتبهت ليلى إلى نظرات فرهاد. مدت يدها إلى جيدها ووضعت لفظ الجلالة الذهبي بين أصبعي الشاهدة والإبهام كأنها تريد أن تخفي قطعة الذهب التي جلبت انتباه فرهاد، ثم خفضت رأسها وقالت بصوت يشبه الهمس:
– زينب قالت لي إنك خجول لكنها لم تقل لي إنك شاعر.
احتار فرهاد كيف يرد. كان خجولاً بالفعل. لكنه لم يكن شاعراً ولم يكن يأبه بالأدب كله. سحرته ذلك اليوم تلك السلسلة المدلاة على صدر زميلته، بينما أوحى له لفظ الجلالة بتلك الكلمات التي استغرب هو أيضاً كيف أتته الجرأة فنطقها. كان متديناً بدون تعصب. واظب على الصلاة في مسجد الإيمان القريب من المدينة الجامعية حين التحق بجامعة حلب. حضر في أيام الجمعة خطب داعية من أصل كردي يدعو الناس جهاراً نهاراً إلى الجهاد في العراق إلى أن قتل ذات يوم جمعة من أيلول 2007 لحظة خروجه من أحد مجالسه مع أتباعه. خاف فرهاد الفتى بعد أن سمع حديثاً تداوله الناس سراً فيما بينهم مفاده أن الداعية القتيل جندته المخابرات لجمع المتطوعين وإرسالهم إلى العراق كمجاهدين في صفوف تنظيم القاعدة وبقية الحركات المسلحة الأخرى وأن المسجد كان مراقباً من قبل كثير من المخبرين والجواسيس. ترك فرهاد ارتياد المساجد وبقي يصلي في بيته بعد أن نصحه أبوه بالابتعاد عن موارد الهلاك. كان والده مدرساً وكيلاً لمادة اللغة العربية في ثانويات منبج وحرمته شعبة المخابرات فيها على مدى خمسة عشر عاماً من التثبيت في وظيفته بتهمة انتمائه لأحزاب كردية.
بعد حديث متقطع شابته عبارات مجاملة واستلطاف متبادلة بين الزميلين الذين تعارفا للتو، اقترب موعد محاضرة ليلى. طلبت الإذن من فرهاد الذي عرض عليها المرافقة حتى كلية الآداب فقبلت بسرور كبير لم تستطع إخفاءه. ثم خرج الإثنان من المقصف بقلوب أكثر خضرة من أشجار الصنوبر النامية هناك.

* * *

تخرج فرهاد وتخرجت ليلى.
وما إن اقترب العام 2007 من نهايته حتى تزوج الإثنان بالرغم من اعتراض أولاد عمومة ليلى المهربين. كانوا يرون أن ابن عمها أحق بها من الغريب. لكنها، وهي التي تخرجت من كلية الآداب فرع الأدب الإنكليزي في جامعة حلب رفضت الاقتران بمن هو أقل منها في المستوى العلمي. حاولت إحدى عماتها إقناعها مرات عديدة:
– يا بنتي يا ليلى ابن عمك عنده كروم عنب وهو من أثرياء إعزاز وكبار مهربيها، صدقيني ستسعدين معه.
رفضت ليلى كلام العمة. أصرت على الزواج من فرهاد الذي تعرفت عليه خلال دراستها في الجامعة. وافق ذلك هوى في نفس أبو ليلى. كان والد فرهاد قد خرج من السجن بعد أن قضى فيه عاماً وثلاثة أشهر على خلفية مشاركته في حفل عيد النيروز في مدينة كوباني وإلقاء قصيدة باللغة العربية عن النيروز فزادت سعادة العائلة ضعفين، سعادة بعودة رب الأسرة وسعادة بزواج الدكتور فرهاد من الأستاذة ليلى مدرسة اللغة العربية.
أثمر الزواج السعيد خلال أربعة أعوام عن صبيين وبنت: كاميران، آلان وميسون.
ولدت ميسون، آخر عنقود في كرمة الزوجين عام 2011 قبل أن ينتفض السوريون ويخرجوا في مظاهرات مناهضة للحكم ثم مطالبة بإسقاط النظام. كانت ليلى أكثر سعادة بميسون من زوجها فرهاد الذي فضل الذكرين كاميران وآلان على أختهما. لكنه حين كبرت ابنته قليلاً تعلق بها تعلقاً شديداً حتى أنه كان يترك عيادته في المستشفى الواقع أسفل منزله ويصعد ليلاعب ابنته الحلوة التي أضفت على البيت حيوية غامضة وبهجة لم تشبه تلك التي صبغت حياة الزوجين سابقاً.

في صيف عام 2012 خرجت مدينة منبج من تحت سقف قصر المهاجرين مثل كثير من المدن والبلدات السورية واستلم زمام الأمور فيها فصائل من الجيش الحر الذي تشكلت نواته حديثاً بعد انشقاق جنود وضباط من الجيش النظامي. انضم الدكتور فرهاد إلى الحراك السياسي الجديد بعد أن اطمئن إلى أن النظام انتهى في منبج وغيرها. صار يعالج كثيراً من الحالات المستعصية لجرحى الجيش الحر ومدنيين آخرين ممن أصيبوا في الاشتباكات والقصف المتبادل وحتى جرحى الخلافات العائلية والعشائرية. أخذ الحماس للوضع الجديد بلب الدكتور فرهاد، تغيرت أحواله ونشط في المجال الطبي الإنساني وكذلك في المجال السياسي كثيراً. التصق بالمدينة واكتشف أنه يحبها أكثر من أي وقت سابق. مات والده بجلطة حادة. قبل موته طلب من ابنه الطبيب أن يغادر منبج:

– يا ابني أنا شامم ريحة الخراب.

– ما راح يصير شي يا بابا. قربت. النظام راح ينتهي خلال أشهر.

– لو انتهى ما راح يصير الوضع أحسن. صدقني فرهاد. شوف هدول اللي يعتبرو حالون البديل. الله وكيلك يا ابني...

– يا بابا بيكفي إنو النظام راح.. كان هاد حلمنا.

– يا فرهاد.. بس..

– يا بابا..

سجال انتهى إلى استسلام الأب الذي كان ينظر بعين الغيب إلى مستقبل البلاد.

مرت الشهور بعد موت الأب على تلك الحالة ولم ينته النظام. وبقي الطبيب الجراح فرهاد ناشطاً من نشطاء المجتمع المدني إلى أن استيقظ أهل منبج ذات صباح بارد من الشهر الأول من عام 2014 على صوت مكبرات صوت مثبتة على سيارات دفع رباعي تجوب شوارع البلدة وتذيع نشيد "دولتنا منصورة" و"جلجلت" وغيرهما من الأناشيد الحماسية.

– داعش صارت في منبج.

تناقل الناس الخبر مرعوبين.

سبق ذلك هجوم عنيف على المدينة بالهاونات وقتل مدنيون كثر وأسعف جرحى إلى مشافي المدينة. لم ينم الدكتور فرهاد ليلتها بل بقي مداوماً في مشفى ابن سينا التخصصي يعالج الجروح الخطيرة إلى أن أصبح الصباح وانطلقت الأناشيد تملأ فضاء المدينة المنكوبة.

تبعثرت جثث كثير من القتلى أمام باب المشفى الوطني، وانسحب عناصر حامية المدينة من الجيش الحر إلى الريف تاركين السكان تحت رحمة داعش.

كثيراً ما طالبه أبو ليلى بترك منبج إلى تركيا:

– يا دكتور أنت شايف كيف البلد صارت غابة. وأنت تعرف وضع منبج أكتر مني. أنت دكتور وعندك ولاد. اطلع على تركيا. خود أمك وولادك واطلعو متل هالناس.

– لا يا عمي. أنا حلفت ما أترك البلد. راح ضل هون عالج الجرحى. هاي مهمتي الأساسية.

– لا تعاند القدر دكتور فرهاد. هدول ما عندون رحمة.

– بعرف كيف أتصرف معهم يا عمي. لا تخاف. هنين محتاجينني مو أنا اللي بحتاجهم.

لم يستطع أبو ليلى أن يؤثر على صهره بأي شكل. بقي الدكتور فرهاد مصراً على البقاء في البلدة إلى جانب الذين يحتاجون إلى طبابته كما قال.

اضطر كثير من الناشطين سابقاً، حفاظاً على دمائهم وأموالهم، أن يهادنوا التنظيم الذي ضرب سورية مثل وباء ويتعايشوا معه. كان الدكتور فرهاد واحداً منهم. سيطر الرعب على الجميع. ذبح الناس وقطعت رقابهم في الساحات أمام جمهرة الناس من الأطفال واليافعين وغيرهم. أصبح الموت خبز الحياة اليومية في كل بلدة ضربها الوباء الأسود. مضت شهور على هذا المنوال إلى أن أعلنت الخلافة في نهاية حزيران من العام نفسه واضطر الناس لمبايعة الخليفة. اضطر الطبيب الجراح الدكتور فرهاد، الذي وقع وثيقة موت كثير ممن قطعت رقابهم لكونه عضو الطبابة الشرعية، أن يمد يده ليبايع أمير داعش

في منبج أبو صلاح المكي ممثل الخليفة في الموصل قائلاً بنبرة فيها خوف كثير: "أعلن بيعتي لأمير المؤمنين الخليفة الشيخ عبد الله إبراهيم بن عواد بن إبراهيم القرشي الهاشمي الحسيني فأقول بايعتك على السمع والطاعة في المنشط والمكره والعسر واليسر وأن لا أنازع الأمر أهله إلا أن أرى كفرًا بواحًا عندي من الله فيه برهان".
وبذلك أصبح أحد رعايا الدولة الإسلامية مستظلاً بظلها الدامي واثقاً من أنه سينجو من شر التنظيم ويستمر في عمله جراحاً في مشفى ابن سينا الجراحي.

* * *

بعد شهرين من قيام الدكتور فرهاد بمبايعة داعش على الطاعة، أي في أواخر شهر آب وذات مساء شديد الحرارة اقتحمت المشفى مجموعة من العناصر مسلحين بالرشاشات مزنرين بأحزمة ناسفة.
– تفضل يا دكتور.
– إلى أين يا إخوتي؟ أنا في العمل.
– ستعرف بعد ذلك.
– دعوني أنتهي على الأقل من معالجة هذه الحالة. إنها عاجلة وتستدعي عملاً جراحياً. الجريح في غرفة العمليات.
– لا تثرثر كثيراً. الأمير يطلبك.
هبط قلبه كصخرة من شاهق. عرف أنها عملية اختطاف وليس اعتقالاً عادياً. قرأ الشر في عيون "الإخوة" الذين جاءوا ليأخذوه وهو بثياب الجراحة وغادر المشفى معهم.
حين تأخر ولم يعد إلى البيت اتصلت به زوجته فلم يرد. اتصلت به بعد ساعتين فلم يرد. وحين في المرة الثالثة رد عليها رجل بلغة عربية فصحى:
– الدكتور عند رجال الدولة. سنحقق معه ثم يعود إلى بيته إن شاء الله تعالى.
للوهلة الأولى ظنت ليلى أنها تسمع صوت عنصر من عناصر أمن الدولة في زمن النظام. اختلط لديها اسم الدولة هنا وهناك. ثم حين وضعت الهاتف من يدها وفكرت قليلاً عرفت أنها وزوجها من مواطني الدولة الإسلامية ومن رعايا الخليفة الذي أعلن قبل أيام متجلبباً بالسواد خلافةً على نهج النبوة من منبر مسجد النوري في الموصل، عرفت ليلى أن من رد عليها ليس عنصر مخابرات بل أحد عناصر داعش. لم تعرف كيف تتصرف. اتصلت بشقيق الدكتور وأخبرته بما حدث فطمأنها بأن الوضع ليس خطيراً بما أن الدكتور لم يرتكب جرماً وهو رجل متدين وأن علاجه لعناصر الجيش الحر سابقاً يدخل ضمن إطار عمله كطبيب جراح من واجبه معالجة كل الحالات التي ترد إلى المستشفى.
لم تنم ليلى تلك الليلة. شعر ابناها كاميران وآلان بأن حدثاً ما عكر صفو أمهما لكنهما لم يأبها بها فواصلا مشاغباتهما الليلية. أما ميسون فقد صارت تسأل طول الوقت عن أبيها وعن موعد عودته. لقد اعتادت على أن يأتي أبوها كل ليلة من المشفى، يأخذها في حضنه ويقبلها، يلاعبها لفترة من الوقت، يقص عليها حكاية قصيرة ثم يعود إلى عمله. وحين لم تر والدها تلك الليلة قلقت مثل أمها. تحركت فيها غريزة الأنثى فصارت تذهب إلى النافذة المطلة على الشارع ترفع قدميها الصغيرتين لعلها ترى في الشارع المعتم طيف والدها الطبيب. بقيت هكذا تذهب إلى النافذة رافعة جذعها إلى الأعلى دقائق معدودة تنادي بلهفة وجزع بالغين: "بابا، بابا" ثم تعود قلقة حتى تعبت ونامت.
نام أخواها الأكبر منها أيضاً بعد مشاغبات عديدة. لكن ليلى بقيت مع هواجسها الكثيرة، صارت تفكر بالقصص التي رواها لها زوجها الطبيب عن عمليات القتل والتصفية التي تمت على يد داعش وطالت ناشطين سابقين في الحراك السلمي الذي عم المدينة في ربيع وصيف عام 2011. قلقت كثيراً، غالبت سطوةَ النوم لعل زوجها يأتي. مضت من الليل ساعات طويلة وأطبق السكون على الأجواء. اقترب الفجر ولم تستطع ليلى النوم فقرأت آيات من القرآن تهدئ بها روعها حتى استسلمت للنوم.

* * *

بقيت ليلى على مدى يومين متماسكة قوية تنتظر زوجها بصبر. وحين حل اليوم الثالث أدركتها فجأة رهبة شديدة. كانت

قد سمعت بحوادث الذبح والتصفية الرهيبة التي نفذها عناصر الحسبة أي شرطة داعش في شوارع منبج وسجنها. سمعت عن الجثث التي يتم اكتشافها يومياً ملقاة في البرية، سمعت عن ناس اختفوا ولم يُعثر لهم على أثر بعد ذلك فتسرب ما هو أكبر من الخوف إلى قلبها.

حين حلت الليلة الثالثة على خطف زوجها، لم تستطع أن تغمض عينيها. كلما أوشكت على النوم تراءى لها رأس زوجها يتدحرج على درج البيت حتى باب المستشفى المواجه لملعب كرة القدم.

تخيلت بعد ذلك أن رأس زوجها يتدحرج من أمام باب المستشفى نحو الملعب ويصير كرة تتقاذفها أقدام كثيرة للاعبين لا يبين منهم سوى أعينهم التي تتوهج كفوهات براكين صغيرة. تعددت الصور المرعبة وتنوعت. كانت كل صورة أقسى من سابقتها حتى أدركها الصباح فارتدت برقعها وذهبت إلى بيت حماتها الواقع خلف الجامع الكبير بعد أن تركت أولادها في البيت وأوصتهم ألا يفتحوا الباب لأحد مهما كان.

عند ساحة الشهداء، في منتصف الطريق بين بيتها وبيت حماتها، شاهدت تجمهراً كبيراً وتكبيرات عالية. خفق قلبها وكادت تتعثر ببرقعها لولا أنها وقفت وسألت عجوزاً طاعنة في السن كانت واقفة هناك عن الأمر. تنهدت العجوز وقالت وهي تجاهد على أن تخفض من صوتها:

– امشي يا بنتي. كملي طريقك ولا تشوفي هالشوفة.

– خير يا خالة شو صاير؟

– ذابحين رجال ومعلقينو على عمود بنص الساحة.

هبط قلب ليلى. شهقت شهقة جعلت العجوز تجفل، تبسمل وتتعوذ خوفاً ثم تبتعد عن المكان.

لم تعرف ليلى كيف وصلت إلى بيت حماتها. ضغطت على جرس الباب لكنها لم تنتظر فتحه بل صارت تخبط بيدها عليه حتى سمعت صوت حماتها من خلف الباب مستنكرة فردت ليلى لاهثة بخوف:

– أنا أنا. أنا ليلى.

فتحت حماتها الباب وهي تعدل من وضع الخمار على رأسها فارتمت ليلى في حضنها وصارت تجهش بالبكاء.

* * *

بعد حوالي ساعة جاءت زينب ثم تبعها نِهاد شقيق الدكتور فرهاد إلى البيت فوجد أمه وزوجة أخيه وأخته زينب جالسات بصمت وحزن. كانت ليلى قد هدأت عقب عاصفة من النحيب بعد أن طمأنتها حماتها وأخت زوجها أن فرهاد بخير وأنه طلب وهو في السجن بعض الأمتعة والثياب. أكد نهاد ما روته أمه وأخته وأضاف أن الذبيح الذي علقوا جثته في ساحة الشهداء ليس سوى مقاتل داعشي أجنبي اتهم بالتجسس وموالاة الكفار. كما أخبر زوجة أخيه أن أمير ديوان الحسبة أبو أنس التهامي أخبره أن الدكتور فرهاد بخير ويخضع لبعض التحقيقات الضرورية وسيطلق سراحه في غضون أيام ما لم تثبت عليه تهمة خطيرة كدعم الصحوات وموالاة أعداء الدولة الإسلامية.

عادت ليلى على عجل وقد اشتعل قلبها أملاً بعودة زوجها.

كان الحشد الذي شهد إعدام المقاتل الأجنبي في الساحة القريبة قد تفرق وخلت الساحة إلا من بعض سيارات أطلقت في هواء منبج أناشيد جهادية ارتجت لها الجدران وصمت الآذان.

مرت الأيام والأسابيع على ليلى وهي تنتظر إطلاق سراح زوجها، صارت تحلم به طالباً جامعياً في كلية الطب البشري، يلتقيها في المقصف المركزي، يمشي معها حتى باب كلية الآداب، يودعها مشيراً إليها بيد مرتجفة وابتسامة خجول. تراءت لها أيضاً كوابيس مفزعة عن رؤوس مقطوعة وأشلاء متناثرة في الساحات ودماء تتدفق على درج البيت تشطفه عاملة التنظيف دون أن ينتهي تدفقها العنيف، صارت تستيقظ في منتصف الليل ترتجف وتصرخ، تضم إليها ميسون الصغيرة المرعوبة وتبكي معها إلى أن يجرفهما موج النعاس إلى أعماقه الضحلة.

كثرت الإشاعات في تلك الأثناء وتردد أن داعش نقل بعض المساجين إلى دير حافر والباب. كما سرت إشاعات من أن عناصر داعش يقتلون كثيراً من الناس في البراري ويدفنونهم قريباً من قرية قبر إيمو شرقي منبج على ضفة الفرات. استبد

القلق بأهالي السجناء والمفقودين. لم يسمح عناصر داعش بزيارة الدكتور فرهاد ولا أي من المساجين الآخرين. تناقل الناس قصصاً قاسية عن حفلات تعذيب لا تخطر على بال أحد يتعرض لها المسجونون والموقوفون على يد العناصر الأجنبية القادمة تحت شعار نصرة المسلمين في بلاد الشام وقتال النصيرية حسب أدبياتهم، ثم سرت إشاعة في منبج رددها أطباء مشفى ابن سينا التخصصي أيضاً مفادها أن داعش نقل الطبيب الجراح فرهاد إلى الرقة ليشرف على معالجة جرحى المقاتلين الذين يأتون بهم من معارك كوباني التي احتدمت في شتاء ذلك العام.

بعد أن مضت عدة شهور على خطف الدكتور فرهاد، جاء عناصر من داعش وقرعوا الباب بعنف. كانت ليلى قد يئست تماماً من عودة قريبة لزوجها. لم تفتح لهم الباب. أشارت إلى أولادها بعدم التكلم فوضعت أصبع السبابة متعامدة على فمها اليابس. سمعت أصواتاً خشنة من الخارج:

– هذه الدار من أملاك الدولة الإسلامية ويجب أن تخلوها فوراً. سنكسر الباب إن عدنا ووجدنا أنكم بعد في الداخل.

تكرر الأمر، كان عناصر داعش يأتون في اليوم عدة مرات ويهددون بخلع الباب واقتحام الشقة وإخراج من يسكنها بالقوة. ارتعبت ليلى كثيراً. لم تجرؤ حتى أن تخابر أباها المقيم في حلب ليأتي وينقذها. عاشت رعباً لا يعيشه مشاهدو أفلام الرعب فأغلقت الباب على نفسها ولم تعد تسمح بزيارة أحد سوى الخادمة التي كانت تأتيهم بالطعام والشراب.

* * *

لم يتغير الوضع على مدى أشهر كثيرة في حلب. كان أبو ليلى وزوجته نازلي يزدادان حزناً على حزن. تفرق أولادهما الذكور بعد الثورة. كان عمر قد انشق عن الجيش العربي السوري والتحق بالجيش الحر في ربيع 2012 ولم يعد أحد يسمع عنه أي خبر. تعددت الأقاويل وكثرت الأخبار المتناقضة عنه. فمن خبر يقول إنه انضم إلى جبهة النصرة في الرقة قبل الهجوم عليها في آذار 2013 إلى قائل إنه اعتقل من قبل قوات النظام خلال معركة في إعزاز إلى من يقول إنه قتل خلال معركة في إدلب. أما ابنه عاصم فقد ترك زوجته وبناته الثلاث في أنطاكية وشد الرحال إلى أوربا مثل الآلاف من السوريين الذي خاضوا لجج بحر إيجة وغيره على ظهر زوارق مطاطية انقلبت بالعديد منهم فابتلعهم الموج بينما تمكن آخرون كثيرون من عبور أهوال البحر والوصول آمنين إلى بر الجزر اليونانية ليجتازوا بعد ذلك أهوالاً أوديسيوسية أخرى. لم تكن آخر مكالمة تلقاها أبو ليلى من ابنه عاصم سوى جملة قصيرة:

– الحمد لله بابا. أنا صرت في اليونان.

شكر أبو ليلى ربه على هذه النعمة، نعمة أن يجتاز ابنه برزخ الموت إلى أرخبيل الحياة الإغريقي. أصبح قلقاً جداً في الأيام التي أعقبت خروج عاصم من حلب بنية التوجه إلى أوربا عبر تركيا. كان قد تذوق الطعم المر لمقتل ابنه البكر عبد الناصر خلال حرب المخيمات في بيروت على يد قناص فلسطيني إبان هجوم قوات حركة أمل على مخيمي صبرا وشاتيلا. لذلك أقدم على تزويج عاصم مبكراً. تزوج عاصم حين كان لا يزال يخدم في الجيش السوري وعمره عشرون عاماً وأنجب ثلاث بنات. وفي السنة الثالثة للحرب لجأ مع زوجته ومعهن إلى تركيا بحثاً عن العمل والأمان. أما ابنه علي الذي اعتكف مثل أخيه عمر عن الزواج فقد التحق بأخواله في عفرين ليمارس هوايته المفضلة في العزف على البزق. استهوته الثورة في بداياتها لكنه أنفها حين أطلقت البنادق لحاها الكثة وامتلأت الدنيا بشعارات منها نصرة الدين وتحكيم شرع الله إلى آخر تلك الشعارات التي لم يجذبه أيٌّ منها فهرب من حلب بعد أن قال لأبيه:

– إذا حابين تضلو في حلب ضلو. أنا رايح. البزق عندي بألف معارضة وألف نظام.

لم يبق في البيت سوى أبو ليلى وزوجته المريضة نازلي ينامان على أصوات الانفجارات ويستيقظان عليها.

* * *

سمعت نازلي وزوجها عبود أبو ليلى بوضع ابنتهما الوحيدة ليلى من حماتها فحزنا كثيراً. لم يكن حولهما أحد من الأبناء الذكور أحد ليرويا له مأساة أخته ويطلبا منه أن يفعل أي شيء لإنقاذها. ألحت نازلي على زوجها أن يذهب بنفسه لإحضارها. كانت هي مريضة لا تقدر على الحركة تقريباً بسبب آلام الركبتين. صارت تطلب منه كل ساعة أن يذهب ويحضر ابنته ينقذها من براثن الطاعون الأسود. كان أبو ليلى عاجزاً عن تنفيذ المهمة لوحده لما سمعه من حماة ليلى أن

وضعها النفسي خطير وقد أصبحت شرسة إلى درجة لا تطاق فاضطر أن يخبر أخواته ذات أمسية بما حدث لابنته.
– أنا بروح على منبج.
قالت أخته أم محمد وهي تضرب على صدرها بثقة تامة.
نظر أبو ليلى إلى أخته أم أنس. كانت مشغولة بنسج كنزة صوفية لحفيدتها وتظاهرت بأنها لم تسمع شيئاً. لكنها اضطرت أن تتوقف عن النسج حين ناداها أخوها باسمها:
– شو رأيك أختي أم أنس تروحي أنت كمان معنا؟
ترددت أم أنس قبل أن يدفعها الإحراج لقبول المهمة الخطيرة: السفر إلى بلاد خلافة الدم الرهيبة.
– أمري لله. راح روح معكون. بس كيف؟

* * *

الفصل الرابع

وصلت سيارة إسعاف صغيرة ترفرف عليها راية الصليب الأحمر وركنت بجانب الحافلة الخضراء التي يستقلها أبو ليلى وجمع آخر من المقاتلين والمدنيين نساء ورجالاً وأطفالاً.

تكاثف بخار أنفاس أبو ليلى مرة أخرى على زجاج النافذة حتى حجب الرؤية عن بصره. لم يمسح البخار هذه المرة. كان قد مل من الجلوس في مقعده فنهض وسحب زجاج النافذة المستطيلة في الأعلى إلى جهة اليمين وأخرج رأسه قليلاً محدقاً في الحشود الهائمة ومصغياً إلى ذلك اللغط اللامفهوم من ناس لم يأخذوا من بيوتهم سوى حقائب وأكياس لا يعلمون هم أنفسهم ماذا وضعوا فيها. أنزل مسعفان جريحاً متمدداً على نقالة بسيطة ملفوفاً ببطانية ونقلاه إلى حافلة قريبة ثم عادا إلى السيارة فاستقلاها من جديد.

سحب أبو ليلى، وهو يستعرض المشهد أمامه، ما وسعته رئتاه من الهواء البارد فأحس بانتعاش كبير. زال عنه انقباض الساعة الماضية وانتزع شبه ابتسامة من شفتيه وهو ينظر إلى أطفال صغار يضعون أيديهم في جيوبهم ويرمقون صامتين سيارة الإسعاف الصغيرة وهي تشق طريقها وتنضم إلى قافلة من سيارات الإسعاف تشبهها تماماً.

– الله يخليك يا حجي سكر هالشباك. متنا من البرد.

ارتفع صوت خشن من مؤخرة الباص.

بدون أن يرد، سحب أبو ليلى الزجاج إلى جهة اليسار وعاد ليجلس في مكانه وقد أنعش هواء آخر ساعة له في حلب ذاكرته المتصدعة فعادت به إلى رحلة محفوفة بالأخطار لانتشال ابنته ليلى من جحيم منبج أواخر عام 2015.

* * *

لم تكن المهمة سهلة أبداً. كان من الصعب على أعضاء فريق الإنقاذ، كما سماهم أنس، ابن عمة ليلى وهو يضحك، أن يذهبوا إلى منبج عبر عشرات الحواجز التي نصبتها فصائل متعددة متحاربة فيما بينها، بعضها يفرض إتاوات على العابرين بل ويتم خطف كثير من الشباب على الحواجز المجهولة في أرض عمتها الفوضى وشاع فيها الموت الرخيص وأضحت صحراء مليئة بكثبان رملية لا يقر لها قرار وتشكلها رياح الفصائل المسلحة على هواها.

أصر أبو ليلى أن يكون مع الفريق المؤلف من أختيه واستبعد منه أنس الشاب خوفاً من خطفه وزجه في أتون الحرب، ثم وضع بنفسه خطة للذهاب إلى منبج معتمداً على خبرته السابقة في مجال التهريب والتعامل مع الحواجز ودفع الرشاوى لتسيير الأمور.

سار الثلاثة، أبو ليلى وأختاه، بعد أن استأجروا سيارة تكسي عمومية ادعى سائقها المشهور أبو حسن مشالح أنه يعرف الواقفين على الحواجز كلهم بدءاً من جنود النظام وجنود الجيش الحر إلى النصرة وداعش والأكراد وغيرهم من الفصائل المختلفة.

– 150دولار. أقل من هيك ما بتوفي معي بنوب يا أبو ليلى. هاد كرمالك ها. لو غيرك أقل من 200 دولار ما بروح.

– بس 150 دولار كتير. شقد بالسوري يعني؟

– شي خمسين ألف ليرة.

– إي هاي الله ما قالها. خمسين ألف؟ بخمسين ألف بشتري سيارة عتيقة.

– عم تحكي عن زمان السفربرلك يا أبو ليلى. نحن بالحرب.

– يلعن أبو هالحرب وساعتها. ما راح تخلص يعني؟ ما بيروح فيها غير المعتر متلي. تبهدلنا يا أخي ع الآخر. تبهدلنا والعالم نسيونا. شو ضل مني ما أخدتو الحرب ها. شو ضل غير هاي الروح يعني؟ والله العظيم لو يسقط علي صاروخ وربك ياخد أمانتو بيكون أحسن. الله وكيلك يا أخي ما ارتاح غير اللي راح.

– لا تنسى يا أبو ليلى بدنا ندخل ع مناطق داعش. ويأما ناس راحو فيها. كمان بدنا نمر من حواجز كتيرة ولازم ندفع مصاري. بعدين انتو ثلاث أشخاص. يعني خمسين دولار ع الراس. وراح ترجعو ومعكم راكب رابع وفي ولاد كمان.

– أمري لله. حسبي الله ونعم الوكيل.
قال أبو ليلى وهو يدفع بيد ترتعش أوراقاً نقدية كثيرة بعد أن حول السائق بحساب بسيط مبلغ المئة وخمسين دولاراً إلى العملة السورية التي خرطت سنواتُ الحرب الثقيلة شوكَها وحولتها إلى تراب.
لم يستطع أبو ليلى أن يقنع السائق أبو حسن مشالح بأن يخفض ولو دولاراً واحداً من الأجرة. كان السائق رجلاً محنكاً يشتغل بتهريب البشر والبضائع وركوب الأهوال حتى نال شهرة واسعة في مساكن هنانو. ألصق الناس لقب مشالح إلى كنيته بسبب اشتغاله بتهريب الألبسة الداخلية النسائية التي يسميها أهل حلب مشالح وشلحات بعد أن طال الدمار سوق الزهراوي الشهير وما سمي بسوق النسوان المحاذي للجامع الكبير في حلب القديمة ومنهما كانت نسوة حلب وغيرها من البلدات القريبة يشترين التفريعات المغرية وثياب الأعراس والألبسة الداخلية الشفافة. لم تسلم الأسواق الأثرية في حلب القديمة من تبادل القصف والتفخيخ والنسف وإطلاق الصواريخ من الجو حتى تضررت أيضاً أجزاء من القلعة التاريخية الشهيرة رمز حلب. وبالإضافة إلى تضرر الأسواق الحيوية في حلب وتدمير أجزاء كبيرة منها فقد توقفت المعامل وخاصة معامل النسيج التي كانت تصدر منتوجاتها إلى كثير من دول العالم.
فبعد أن التهم الحريق أكبر مصانع حلب في أواخر سنة 2011 حلت اللعنة بصناعة النسيج فنهبت محتويات بعض المصانع وتم نقل خطوط الإنتاج بعد تفكيك الآلات في بعض المصانع إلى تركيا كما تمت سرقة كثير من المصانع الواقعة في منطقة نفوذ بعض فصائل الجيش الحر التي اتهمها أصحاب المصانع بتعفيشها وسرقة محتوياتها وبيعها إلى تجار أتراك.
ولو بقيت المصانع على حالها ولم تتدمر أو تسرق لأفلست أو توقفت بسبب هجرة اليد العاملة من وطأة الحرب من جهة ومن جهة أخرى بسبب وقوع الأراضي التي تشتهر بزراعة القطن في قبضة داعش في الرقة ودير الزور وريف حلب الشرقي وحتى جنوب الحسكة.
ولم يستطع عرض الحكومة لأصحاب المصانع بنقلها إلى مناطق أكثر أمناً أن يجد أية آذان صاغية لديهم بل رأى هؤلاء فيها حركة خبيثة تهدف إلى وضع اليد على ما تبقى من ممتلكاتهم عبر نقلها إلى مناطق النظام. كما أن بعض أصحاب المصانع أكد أن القرار الحكومي أو العرض الذي تقدم به النظام ليس سوى حيلة الهدف منها نهب طائفة معينة لأموال طائفة أخرى بتغطية من قرارات الحكومة وتحت ستار مساعدة الرأسمال الوطني في حماية الصناعة النسيجية.
استفاد أبو حسن من تلك الأزمة الخانقة التي سببتها الحرب فاغتنى من تجارة المشالح التركية بعد أن فتح في بيته متجراً صغيراً ملأه بشتى أنواع الحرائر وحمالات الصدر والسراويل الداخلية والتفريعات التي كان يأتي بها من الجانب التركي حين يأخذ ركاباً إلى مدينة كِلِسْ عبر معبر باب السلامة الحدودي.
– مليون حرب ما تقدر تمنع لبس المشالح. الناس بدها تتمتع لك خاي.
قال أبو حسن لأصدقائه من السائقين ذات يوم ثم قهقه وهو يروي نوادره في تلك التجارة العجيبة.

* * *

خرجت السيارة من حي مساكن هنانو شرقي حلب حيث يسكن أبو ليلى وحيداً مع زوجته المريضة، وعبرت بركابها شوارع كالحة تمددت على جانبيها الأبنية التي أتعبتها الحرب فعجزت عن الوقوف. بعد دقائق وصلت سيارة الأجرة الصفراء إلى حي جبل بدرو الذي لم يكن بدوره سوى ركام مثل غيره من الأحياء الفقيرة التي خرجت من يد النظام وحلت بها لعنة السلاح. من هناك انطلقت السيارة لتمر من شوارع حي طريق الباب المدمر وتتوجه من هناك إلى منبج. كان القلق بادياً على وجوه الجميع. حتى أن سائق التاكسي أبو حسن مشالح الذي تظاهر بالشجاعة ومعرفة أهل الحواجز قلل من ثرثرته بعد ما سارت السيارة بضعة كيلومترات إلى أن صمت نهائياً ونمت عرائش القلق على وجهه أيضاً.
في سفرتهم تلك صادفتهم حواجز كثيرة وأعلام ورايات متنوعة، دفع أبو حسن مبالغ مالية للواقفين على الحواجز وهو يقول لهم مبتسماً مع غمزة عين: بَدكُمْ المَيَّة وِلَّا الحرية؟ وهي عبارة درجت وصارت شائعة يقولها المارون من بعض الحواجز ويقصدون بها هل أنتم ثوار طالبو حرية فنمر بسلام أم ندفع لكم مئة ليرة رسم عبور؟
سار أبو حسن بركابه في طرق غير مألوفة عبر القرى المتناثرة في البراري المنسية، سلكوا دروباً ترابية ضيقة وموحلة، متعرجة

تعلو وتهبط. علقت الدواليب في الطين أكثر من مرة فنزل أبو ليلى وأختاه ليدفعوا السيارة إلى الأمام. صارت أم أنس وأم محمد تضحكان على أخيهما العجوز وهو يلهث دافعاً السيارة العالقة في الطين بما تبقى لديه من طاقة استنزفتها سنوات الحرب الخمس أكثر مما استنزفتها حياته السابقة كلها. غاصت أحذية الجميع في الوحل وتحملوا زخات المطر والبلل ووخزات البرد حتى اقتربوا بعد خمس ساعات من مدينة منبج في رحلة لا تستغرق في الأحوال العادية إلا ساعة من الزمان.

* * *

حين وصلت السيارة إلى مشارف منبج، لاحظ أبو ليلى وأختاه المتوترتان حاجزاً كبيراً ترفرف عليه راية سوداء مع كتابة عربية باللون الأبيض. كانت تلك راية داعش. راية لا إله إلا الله: الفخ الذي جذب الآلاف من المتحمسين إلى أرض المحشر والمنشر كما سمت أدبيات المجاهدين البلاد السورية الغارقة في دم أبنائها المسفوح بيد أبنائها.

توقفت السيارة حين وصلت إلى الحاجز فاستقبلها رجال ذوو لحى كثة، شعث الشعور يلبسون كرابيس حتى الركبة وسراويل قصيرة من تحتها وسترات مبرقعة يتكلمون العربية الفصحى كما في الأفلام التي صورت المجاهدين وجعلتهم مادة للسخرية.

– السلام عليكم ورحمة الله

– وعليكم السلام. إلى أين إن شاء الله

– إلى المدينة إن شاء الله تعالى لزيارة الأهل. هذه بطاقاتنا الشخصية يا أخي

رفع أبو حسن مشالح صوت الشيخ خالد الغامدي من جهاز تسجيل السيارة ومد للعنصر الداعشي بطاقته و البطاقات الشخصية التي جمعها من ركابه الثلاثة قبل دقائق.

لم يستغرق التدقيق في البطاقات كثيراً، إذ لم يكن ثمة شباب بين ركاب سيارة التاكسي بل امرأتان مجلببتان بالسواد، ورجل مسن وسائق يعرفونه سابقاً. وبعد فحص وتمحيص واستجواب قصير سمح الداعشي لهم بدخول منبج أهم مدن خلافة الدم في شمال سوريا.

* * *

قبل أن يذهب أبو ليلى وأختاه إلى بيت ليلى الواقع أسفل المستشفى، ذهبوا إلى بيت حماتها أم فرهاد فاستقبلتهم حزينة دامعة العينين. سردت لهم قصة ليلى من ألفها إلى الياء. حكت لهم كيف أن ليلى ضربتها حين حاولت إقناعها بترك البيت والذهاب للإقامة عندها:

– والله وبالله ضربتني بشدة. ما بعرف منين اجتها كل هالقوة! وغيبة ابني فرهاد ما قلتلها غير يا بنتي جيبي ولادك وتعي لعندنا ع البيت. حرام تكوني لحالك.

– لا حول ولا قوة إلا بالله. إنا لله وإنا إليه راجعون.

رد أبو ليلى مطرقاً فيما كانت أختاه تصغيان بحزن للقصة.

بعد تناول الطعام وأخذ استراحة قصيرة قصد الجميع بيت ليلى فطرقوا عليها الباب. أكدت أم فرهاد أن ليلى لن تفتح الباب وأنها اعتكفت في البيت منذ اعتقال زوجها وأصبحت شرسة جداً لدرجة أن نساء داعش اللواتي يأتين إليها ليخرجنها من البيت بأمر من أمير داعش يعدن خائبات. روت لهم كيف أنها أصرت عليها ذات يوم أن تلتقيها فبقيت ملازمة باب الشقة تتكلم معها بلطف إلى رأت الباب يُفتح فجأة لتخرج ليلى وتشدها من شعرها وتضربها على وجهها حتى أدمته.

– والله جنت. أقسم بالله الجن ركبوها. ليلى البنت العاقلة الدارسة المتعلمة ومعلمة المدرسة تعمل هيك؟ تضربني وتهينني؟

كانت ليلى قد أقفلت على نفسها باب البيت وتحصنت فيه وحلفت أنها لن تخرج إلا حين يأتي زوجها الطبيب بنفسه ويأمرها بذلك أو تموت فيه. منعت أولادها من النزول إلى الشارع واللعب فيه. خوفتهم من وحوش بشرية ذات أنياب ومخالب وفراء من نار يقتاتون أكباد الأطفال، قالت لهم إن الجن نزلوا بساحات منبج وأن العفاريت يتجولون في شوارعها وأن شياطين ملفَّعة بالسواد تقتحم البيوت وتخطف الصبيان لترضعهم من قطران أسود. عاش أطفالها، سيما كاميران وآلان،

رعباً لا مثيل له. لازموا البيت خوفاً مما روته أمهم لهم واكتفوا بما تأتيهم به إحدى النساء اللواتي كن يخدمن ليلى أيام كان زوجها الطبيب على رأس عمله.
قال أبوها بحزن بعد أن سمع ما سبق:
– أنا راح دق الباب وأكلمها. بعرف معزتي عندها. انتو ضلو ساكتين. لا تخلوها تحس عليكم.
بقبضة مرتجفة، طرق أبو ليلى الباب ثم وضع أذنه عليه وأصغى بانتباه. لم يكن هناك حس ولا حركة. طرق ثانية فلم يسمع حتى ولو نأمة خفيفة من الداخل. ثم وضع أصبعه الإبهام على زر الجرس وضغط ينادي: "ليلى. افتحي الباب يا بنتي. أنا أبوكِ. افتحي الله يخليك. أنا وعماتك جينا نزورك. نحن ضيوفك يا ليلى. بدي شوف ميسون".
كاد يطرق الباب مرة أخرى حين سمع جلبة من الداخل تبعها صوت نحيب ابنته. أجهشت ليلى بالبكاء حين سمعت صوت أبيها ثم فتحت الباب وارتمت في حضنه وهي تنحب نحيباً مراً. أمسكت ميسون بثوب أمها وصارت تبكي معها فيما نظر كاميران وآلان بدهشة خالطها الخوف إلى جدتهما وعمتيهما اللواتي وقفن لدى الباب بحزن كما لو أنهن كائنات من كون آخر.
لم يكن ذلك سوى مشهد متكرر من مشاهد الحرب القاسية والمجنونة في سوريا، مشهد لم تصوره الكاميرات ولا التقطته أقمار صناعية تعرف ماذا يفعل النمل في مساكنه. مشهد لم يؤثر سوى على قلوب من حضره وعايشه وهم أب وأختاه، وأحفاده الثلاثة ثم ابنته وحماتها والله تاسع الجميع.
حين هدأت ثورة البكاء قليلاً خاطبها أبوها برفق:
– يا بنتي نحن جينا حتى ناخدك على حلب. أمك مريضة وبدها تشوفك. الله يخليك تعي معنا.
– لا. ما بطلع من بيتي حتى لو خربت الدنيا. أترك بيتي للجن؟
– أي جن يا بنتي؟ أي جن الله يخليك؟
– الجن يا بابا. الجن اللي عبّو الشوارع والساحات. الجن اللي لابسين أسود وعيونون عم تقدح شرر ولما يمشو ينفر الدم من بين رجليهون. شفتون بعيوني اللي راح ياكلهم الدود. أنا شفتهم يا بابا. شفتهم بعيوني.
وعادت تجهش مرة أخرى.
عانقتها عمتها الكبرى أم محمد. واستها بأن حكت لها بصوتها الحنون بأن الأفضل لها أن تهرب من الجن إلى حلب. قالت لها إن بقاءها داخل جدران البيت لا يعصمها من خطر الجن الذين أحكموا قبضتهم على منبج وما جاورها. لكنها أبت.
أبت أن تذهب معهم وجعلت من عودة زوجها الوشيكة حجة في ذلك:
– بستنى فرهاد. فرهاد ما راح يطول. ما بيصير يجي ع البيت وما يشوفني.
– يا بنتي تعي معنا. بس يطلع الدكتور بوعدك راح نرجع.
– راح ضل هون.
– طيب راح تضلي حابسة حالك وهالولاد معك؟ بيصير هالحكي يا روح عمتك؟
– خدو الولاد معكم. خدوهون وسلمو على أمي. بس أنا ما بجي ما بجي ما بجيييييييييييي.
قالت بعصبية ثم نزعت غطاء رأسها وصارت تشد شعرها شداً قوياً حتى تدخلت عمتاها ومنعتاها من المزيد.
تحصنت ميسون وراء الصوفا ولم يظهر منها سوى عينيها المرعوبتين وهي تنظر إلى أمها. أما كاميران وآلان فقد ذهبا إلى المطبخ يتناولان ما وجداه في الثلاجة وهو ما دأبا عليه مذ أصيبت أمهما بانتكاسة نفسية كبيرة عقب خطف والدهما من المشفى. عاش الأولاد في رعب لا مثيل له واقتنعوا بكلام أمهم حول الجن الذي ملأ شوارع منبج وساحاتها وبدأ يخطف الأطفال ليتغذى على عظامهم. أمرتهم أمهم بالصمت وعدم التجول في البيت حتى لا ينجذب الجن إلى ضوضائهم ويكتشف موقعهم فيخطفهم ويجردهم من اللحم ويهشم عظامهم الطرية بين أسنانهم.
– عظام الأطفال الطرية هو غذاء الجن.
أكدت ليلى لأولادها هذه المقولة كل ليلة.

– وإذا الجن ما شافو أطفال شو بياكلو؟
دأب آلان أن يسأل أمه ذات السؤال ليجيبه أخوه الأكبر بثقة:
– بياكلو روث الحيوانات.
– لا. ما بيجوز تحكي هيك.
ترد ليلى وتتابع:
– ينبشون قبور الأطفال الميتين الذي ذابت لحومهم في القبور ويتناولون العظام المجردة.
– وليش ما بياكلو متلنا؟ مو أحسن؟.
– هيك الله خلقهم. الجن عالم تاني.
لم تكن ميسون تفهم هذه الأمور، كانت طفلة تهوى اللعب والغناء والرقص والتجول في أرجاء البيت بحرية أو النزول إلى الشارع أو على الأقل الذهاب إلى الشرفة لمتابعة حركة الخارج من مرور السيارات وجلبة رواد المستشفى وضجيج المارة وصخب الأطفال. لم تفهم لماذا تقمعها أمها وتكتم أنفاسها وأنفاس أخويها. كانت تطلب حضور أبيها كل ليلة فتعدها أمها أنه قد يطرق الباب في أية لحظة لكن ذلك يتطلب أن تغمض عينيها وتنام.
عاش الأطفال الثلاثة أياماً لا يتحملها الكبار. حبستهم أمهم داخل البيت وخوفتهم من الخارج حتى باتوا أشباحاً لا يتكلمون إلا همساً وفي الأيام الأخيرة صاروا يتكلمون بلسان الإشارة حتى وصل جدهم فارتموا في حضنه وصاروا يطوفون به كأنه شيء مقدس.
احتار الأب بين عناد ابنته وحزنها ولهفة أحفاده وتوقهم للحرية. لم يكن أمامه خيار سوى إنقاذهم ولو بالقوة من هذا الكابوس المرعب. غمز لأختيه وقال يخاطب ابنته العنيدة:
– راح نروح يعني راح نروح. الشغلة مو بكيفك. وأنت لازمك راحة نفسية. وبس يرجع الدكتور فرهاد بخير وسلامة بيفرجها ربك. وعد مني راح تكوني بتاني نهار هون بمنبج.
تمنعت ليلى. أبت أن تذهب وتترك بيتها االذي ستسيطر عليه داعش بكل تأكيد. ولم يجد أبوها بداً من أخذها معه حتى لو بالإكراه بعد أن تجشم مغامرة المجيء إلى أرض خلافة الدم.
شدها الأب من يدها، بعدما ألبستها عمتاها الجلباب كرهاً. حاولت أن تصرخ وتهرب من قبضة أبيها الشديدة. ضربها أبوها وقلبه يتقطع على البنت. بكت عمتها أم محمد وطالبت أخاها بالرفق بابنته.
– يا أختي ما بيمشي الحال. لو ضلينا هيك راح نضل ننطر سنة لحتى تجي معنا.
رد الأب وهو يشد ابنته إلى الخارج حيث تنتظر سيارة التاكسي.

* * *

منعت دمعتان كبيرتان انحدرتا من عيني أبو ليلى من متابعة ما يجري خارج الباص. منعته تلك الدمعتان من متابعة ما فاض عن ذاكرته الثكلى أيضاً. غام المشهد أمام عينيه. مسح دمعتيه بظهر إبهاميه فرأى أمام الباص عجوزاً مجلببة بالسواد تمشي على عكازة يتبعها طفل يحمل على رأسه كيساً كبيراً تتبعهما طفلة صغيرة بوجه مكفهر خائف. غاب الثلاثة بعد قليل من المتابعة وراء أكوام الركام ثم بدأ رذاذ ناعم يتساقط من السماء ما حدا بسائق الباص المتجهم أن يشغل ماسحتي الواجهة الزجاجية الأمامية العملاقتين اللتين بدأتا تمسحان قطرات المطر الخفيف تماماً مثل ما مسح إبهاما أبو ليلى الدموعَ آنفاً.
التفت أبو ليلى مرة أخرى إلى يمينه فالتصق خده الذي غطته لحية بيضاء كثة بزجاج النافذة البارد ما أحيا رميم ذاكرته من جديد.

* * *

الفصل الخامس

طوال طريق العودة من منبج إلى حلب لم تتوقف ماسحتا سيارة التاكسي الأماميتان. دأبتا بإيقاعات رتيبة على مسح مناديل الماء التي كانت تنسجها أصابع المطر الغزير على النول الزجاج في الأمام، مما زاد المشهد كآبة على كآبة.
بكت ليلى كثيراً وصارت تتوسل إلى أبيها أن يعيدها إلى منبج لكنه أبى أن يصغي إلى توسلاتها. أما الأطفال فبانوا على العكس من أمهم سعداء بتحررهم من السجن الذي زجتهم فيه فظلوا يصرخون طوال الطريق وهم يشيرون إلى كل شيء يظهر لهم وكأنهم يكتشفونه لأول مرة في حياتهم.
بعد المرور من الحاجز الرئيسي نامت ميسون.
نامت كأنها تعوض عن أرق ألف ليلة وليلة بعد سرد الحكايات المرعبة الطاردة للنوم. نامت بعمق كأنها جثة. لم تأبه بها أمها وظلت ترجو أباها وتلح عليه أن يعيدها إلى منبج إلى أن هدأت وأخلدت هي الأخرى إلى النوم.
مرت ساعات السفر ثقيلة، حزينة، وبطيئة تماماً مثل ساعات يقضيها المرء في مأتم. كان أبو ليلى يلتفت إلى المقعد الخلفي بين الفترة والأخرى لينظر بحزن إلى وجه ابنته الذي أرهقه التعب النفسي وأيام الحصار الذي فرضته على نفسها. قرأ في ملامح وجهها المدور الصغير رعب الشهور الماضية. تذكرها وهي طفلة صغيرة بضفائر رائعة تملأ البيت بهجة وتجعله أكثر حميمية. تنقل بنظراته بينها وبين حفيدته ميسون. كانت ميسون تشبهها كثيراً. تشبهها في كل تلك البراءة وكل ذلك الإرهاق والحزن المطرز على تقاسيم الوجهين.
– يا رب.
تنهد أبو ليلى ثم التفت إلى الأمام يحدق في الماسحتين المشغولتين بطرد قطرات المطر عن الواجهة الأمامية.
– طول بالك أبو ليلى. الله وكيلك كل واحد فينا عندو قصة أقسى من قصة بنتك بكتير. إلنا الله.
– ونعم بالله.
رد أبو ليلى على السائق ثم صمت يصغي لهدير الذاكرة وصرير الماسحتين المشغولتين بدفع غائلة المطر عن زجاج الواجهة.

* * *

غطى هدير ذاكرة أبو ليلى على هدير محرك الباص الأخضر وانشغل بها دون أن ينتبه إلى أن السائق المتجهم نزل ليشعل سيجارة ويدخنها تحت الرذاذ الثرثار في ذلك الصباح الأخرس.
بدا الركاب مرهقين صامتين وجلين من الرحلة بعد أن تداول الناس فيما بينهم نقلاً عن نشرات الأخبار أن قافلة الباصات أمس تعرضت لإطلاق نار غزير وأن هناك قتلى وجرحى بسبب ذلك. لم يعد يشغلهم في تلك اللحظات سوى أن يخرجوا بأمان من ذلك الجحيم الذي ذاقوا نيرانه على مدى أشهر رهيبة. نام الأطفال جميعاً فيما غاصت وجوه الرجال الكئيبة بين أكتافهم وهم يحدقون مثل أبو ليلى عبر زجاج النوافذ إلى المطر الذي زاد من ثرثرته.
عادت ذاكرة أبو ليلى إلى الوراء حتى استقرت من جديد عند أحداث ذلك اليوم الذي أتي فيه بابنته من منبج. تذكر كيف أنهم بعد أن تجاوزوا مدينة الباب واقتربوا من حلب، وبالقرب من حاجز من حواجز إحدى الفصائل أرادوا عمل استراحة قصيرة. بقي الأطفال نائمين في السيارة التي لم يتوقف محركها عن الهدير فيما نزل أبو ليلى وابنته وأختاه والسائق الذي اقترح الاستراحة لرغبته في التدخين. كان المطر قد توقف وأشرقت من بين الغيوم الهاربة من ريح الشمال شمس خجول لكنها بينة الإشراق.
فجأة استدارت ليلى إلى الشرق وركضت بأقصى سرعة. لحقت بها عمتاها وأبوها. كانت تركض باتجاه منبج ولا تلتفت إلى الوراء. سقطت عمتها أم محمد في الوحل فتوقفت أم أنس لتعينها. لم تمر دقائق حتى سقطت ليلى أيضاً فوصل والدها إليها وأمسك بيدها بقوة وصفعها على وجهها وصار يجرجرها في الوحل صوب السيارة. ذهل السائق وعناصر الحاجز لهذا المشهد الغريب. سأل أحد عناصر الحاجز عن الموضوع فقال السائق مشيراً بسبابته إلى صدغه:
– مجنونة الله يعينها ويعين أهلها.

– طيب فهمني مين المجنونة فيهون؟
كتم السائق ضحكته، ثم قال بلهجة قصد أن تكون حزينة:
– اللي ركضت بالأول خاي. هاي المسكينة اللي لحقها أبوها وضربها كف. قصتها قصة.
حوقل عنصر الحاجز ثم دار حول نفسه كأنه يبحث عن شيء وما لبث أن اتجه إلى زميل له يقف غير بعيد. تبعه أبو حسن مشالح، مد له ولزميل المسلح علبة الدخان وقال ضاحكاً:
– دخنوا شباب. الله وكيلكون من خوفي من داعش كنت مخبيها بالسيارة بمحل ما يخطر على باب صاحب المصنع ذات نفسو. هرَّبت معي عشرين كروز دخان أجنبي، حتى الركاب اللي معي ما حسو عليها.
ثم اقترب ما وسعه من المسلحين وقال هامساً:
– هرَّبت معي عشرين تفريعة كمان. قال داعش منع هالشغلات لأنها حرام. إي بشرفي أنجس من داعش ما في. شهوانيين أكتر من الكل وعاملين حالون ملايكة.

* * *

رمى السائق لفافة التبغ الثانية التي دخنها ذلك الصباح ثم صعد إلى مقعده ليرتفع من مؤخرة الباص صوت غاضب خاطبه قائلاً:
– هلق بدنا نضل نستنى الأوامر؟ طيب إذا ما بدك تمشي حط لنا شي غنية لك خاي. ملينا.
رد عليه صوت عاتب بحياء:
– هلق وقتك؟ ما إجاك الطرب إلا بهاليوم؟
– إشْ عليه لك خاي؟ خريانة وخريانة..خلينا ننطرب. شفنا الموت شخصي. خلاص بدنا نفرح شوي.
مد السائق يده إلى آلة التسجيل ثم ضغط على زر صغير فصدحت الموسيقى:
– هيهات يا بو الزلف عيني يا موليا
ما احلى الوما بالوما وما احلى العزوبية..
هدرت أغاني فيروز، كرَّت وكرَّت إلى أن وصلت إلى أغنية
"ع الروزنة" فأصغى الركاب جميعاً، حتى السائق الصارم المتجهم، بصمت واهتمام بالغين إلى أغنية طالما سمعوها وسمعوا قصتها:

ع الروزنة ع الروزنة كل الهنا فيها
شو عملت الروزنة الله يجازيها
يا رايحين ع حلب حِبي معاكم راح
يا محملين العنب تحت العنب تفاح
كل مين حبيبو معو وأنا حبيبي راح
يا ربي نسمة هوا يجي الحلو فيها.

* * *

وضع سائق التاكسي، أبو حسن مشالح، قرص سي دي ليقطع الصمت الذي وقع فيه الجميع قبيل دخول حلب من جهة طريق الباب فصدح صوت صباح فخري:

آه يا حلو يا مسليني
يللي بنار الهجر كاويني
إملا المدام يا جميل واسقيني
يا عيني
من كتر شوقي عليك مابنام.

لاحظت أم محمد دموعاً صافية تنحدر من عيني ليلى وهي تنظر للدمار بدهشة كبيرة. لفت رقبتها بيدها اليمنى ثم جذبت رأسها إلى حضنها ومسحت على كتفها فاستكانت ليلى وبدأت تجهش بصمت. نظر الأطفال من خلال زجاج النافذة إلى أكوام الركام على جانبي الطريق الذي تسير عليه السيارة، قال كاميران ببراءة:

– جدو شو صاير هون؟

– زلزال جدو زلزال.

أجاب أبو ليلى بحزن. وقبل أن ينتهي جوابه دوى صوت قذيفة قريبة:

– شو هاد عمتي؟

سأل آلان عمته بخوف.

* * *

سالت قطرات المطر ببطء على الزجاج الذي يحدق من خلاله أبو ليلى إلى الخارج. رسمت تلك الخطوط المائية ملامح بلاد مغتصبة تناوب عليها زناة من كل بقاع الدنيا. ظهر الناس المتجمهرون خارج الباص بلا ملامح، حزانى، كئيبين غيرت الحيرة سحناتهم وزاد الوجومُ وجوهَهم الكالحةَ أصلاً صرامة على صرامة.

اغتسلت الأنقاض بالمطر. واغتسل خيال ركاب الباص بالذكريات. وضع أبو ليلى يده اليسرى على جبينه وعصر ليمونة الذاكرة من جديد.

عاشت ليلى وأولادها الثلاثة مع أبيها وأمها في البيت. ازدادت حالتها النفسية سوءاً على سوء. صار من الواضح من الأعراض التي ظهرت عليها أنها مصابة بأزمة نفسية حادة. كانت تخرج من البيت وتذهب للجيران، تدق عليهم الأبواب، تشرب القهوة تبصِّر وتقرأ الفنجان ثم تدعو نساء البيت إليها وتقول سأشفيكم بإذن الله. تتمتم ببضع آيات من القرآن ثم تقول لمن تتوهم أنها مريضة: "خلاص روحي. معافاية بإذن الله". لم يكن ثمة أطباء نفسانيون في الجوار. هرب غالبية الأطباء من حلب الشرقية بعد القصف الذي طال المستشفيات. وحين اقترح أبو ليلى ذات مساء أن يودعها في مشفى ابن خلدون للأمراض العقلية جُنَّت نازلي وقالت في نغمة أقرب للصرخة:

– أحط بنتي الوحيدة في الدويرينة[3]؟ شو ما عندك قلب؟ هيك بتحب بنتك؟ حدا بيحط روحو في النار يا عبود؟

– طيب شو الحل يعني؟ نترك البنت هيك تضيع من بين إيدينا؟

– خليها عندنا بالبيت أستر.

أخيراً عثروا على طبيب عام كان يعد العدة للرحيل فوصف لها بعض الأدوية المهدئة القوية والأقراص المضادة للذهان. بعد أيام تجشم أبو ليلى عناء الذهاب إلى حلب الغربية ماراً من معبر الموت في بستان القصر حيث الآلاف من الناس ينتظرون، يروحون ويجيئون فاشترى الأدوية الموجودة على الوصفة الطبية وعاد بالعناء ذاته الذي ذهب به. تحسن وضع ليلى بعد بضعة أشهرمن تناول الدواء فصارت تعتني بأطفالها، تطبخ لهم وتغسل ثيابهم وتلاعب ميسون وتلاطف أمها. كانت تسمع بين الحين والآخر من أخت زوجها، رفيقتها في أيام الجامعة زينب التي هربت فيما بعد مع زوجها وولدها الوحيد إلى عنتاب، أن الدكتور بخير.

– هو بخير، هي بخير.

أصبح السوريون يتداولون هذه العبارة كثيراً ليبينوا حالة مفقود، مخطوف أو غائب. كانت الأخبار الشحيحة الواردة عنهم غامضة غائمة متناقضة مبتورة لكنها كانت عزاء للأهل المنتظرين عودة أبنائهم وبناتهم. كثرت أعداد القتلى والمعتقلين والمخطوفين لدى كل الأطراف حتى بات خبر صغير عن استمرارية حياة المغيبين يساوي وزنه ذهباً. لم تصدق الأمهات أن أولادهن الموجودين في المعتقلات قتلوا تحت التعذيب. اعتقدن أنهم لا يزالون أحياء وأنهم سيرجعون يوماً ما:

– اليوم حلمت فيه.

– وأنا كمان.

– راح يرجع، قلبي بيقللي.

– الله يفك أسر الجميع.
قالت الأمهات للأمهات وهن يختزن نفق المحنة الطويل والانتظار المر.
دفع بعض الأهالي أموالاً كثيرة لضباط ومتنفذين لا لشيء إلا ليسمعوا خبراً مفاده "ابنكم موجود في سجن كذا" أو حتى "ابنكم قتل في بلدة كذا".
أصبح السجناء المفرج عنهم نجوم السهرات والمضافات في كل مكان من سوريا. "لا بد أن لديهم خبراً عن المعتقل فلان أو علان" ردد الناس فيما بينهم وهم يتجهون لمباركتهم بإطلاق سراحهم وسماع أخبارٍ يتوقون إليها فما من عذاب يوازي عذاب انتظار الغائبين المجهول مصيرهم. وفي الحرب التي شهدتها البلاد زاد عدد المغيبين والمخطوفين بشكل لم يعهده تاريخها الطويل في ظل الاستبداد الذي امتد لأكثر من خمسين سنة عجفاء مذ أعلن البعثيون ثورتهم على الانفصاليين الذين ثاروا على وحدة عبد الناصر التي لم تدم سوى ثلاث سنوات عجاف. خطف أحد التنظيمات الكردية المحلية على مدى أعوام فتياناً وفتيات مراهقات من مدارسهم ومن الشوارع ومن أمام بيوتهم ليزج بهم وبهن في حروبه متعددة الجبهات والولاءات. ذاب الأهلون قهراً دون أن يظفروا بجواب يبرد نيران قلوبهم من السلطات التي انتدبها النظام لحماية شماله من النار التي شبت في درعا. خطف داعش الشباب على حواجزه المنصوبة في رأس كل بلدة من البلدات التي احتلها، تم خطف واعتقال آلاف المتظاهرين منذ بداية انطلاقة شرارة النار في درعا، تم خطف النساء والرجال وحتى الأطفال على حد سواء من الحواجز التي لم تكن سوى فخاخ لاصطياد الناشطين والمواطنين الآخرين. خطفت الفصائل الإسلامية المعارضة ناشطات وناشطين يعملون على رصد الانتهاكات بحق المدنيين. أضحى المواطنون فرائس سهلة تسعى إلى التهامها جموع الصيادين الذين تكاثروا كالفطر على الأرض السورية التي جعلتها الدماء رطبة جاذبة لكل أنواع الضباع وملائمة لنمو الفطريات.

* * *

بقيت ليلى صابرة تعد الأيام التي مرت ثقيلة بطيئة جداً تترقب عودة زوجها الطبيب أو سماع خبر عنه، تعيش لحظات القصف المرعبة وترى فيها ما يشبه اللحظات التي عاشتها في ظل خلافة الدم بمنبج. أصبحت تتقاسم خبز الخوف وماءه مع أبنائها وأبيها وأمها وأهل الحي المحاصرين. مرت الأيام متشابهة: قصف ودمار وانهيار أبنية وانتشال جثث من تحت الأنقاض وإطلاق نار وقصص مرعبة عن ضحايا القنص إلى أن شاهدت صباح ذلك اليوم الرهيب ابنتها الصغيرة ميسون، التي كانت قد احتفلت قبل قليل بعيد ميلادها الخامس، تنشطر إلى نصفين مثل قطعة جبن مرت فوقها سكين حادة.
لم تر شيئاً بعد ذلك.
حين استفاقت من غيبوبتها حاولت أن تنادي ابنتها وتصرخ بأقصى ما في حنجرتها من قوة نداء: ميسووون، لكنها وجدت نفسها عاجزة عن النطق. كانت حنجرتها مشلولة فتكلمت عيناها الحزينتان بدموع ساخنة مالحة. بحثت بهما عن ميسون. كانت الصدمة كبيرة وقاسية ولا تحتاج إلى مفردات للتعبير عنها. ألم أكبر من كل كلام شعرت به ليلى حين فتحت عينيها اللتين شاهدت بهما ما جعلتها تقع في بئر الصمت .
خرست ليلى.
فشلت كل محاولات أمها وأبيها وعمتيها لإعادتها إلى جادة الكلام. حاول ابناها اللذان تأثرا كثيراً بمقتل أختهما أيضاً أن يستدرجا أمهما إلى الكلام ففشلا. عبثاً ارتكبا عن قصد حماقات فأخرجا لها لسانيهما، عملا حركات تهريجية، قلدا أصوات الحيوانات، سرد كاميران نكتاً مضحكة كثيرة كل يوم لعله يخرج أمه من مستنقع البكم الذي غاصت فيه دون جدوى. كان آلان أكثر تأثراً من أخيه بوضع أمهما الخرساء فقد اعتاد أن يسمع منها كل ليلة قبل النوم قصة على لسان الحيوان لكنها لم تعد قادرة على ذلك فتكفلت جدته بالموضوع وصارت تروي له ولأخيه كاميران ما سمح به خيالها المتغضن وذاكرتها المحدودبة من حكايات غزيرة بنهايات سعيدة على الدوام.
كانت تحكي لهما قصصاً عن الغيلان والجن والشياطين والأشرار الذين ينهزمون في نهاية كل حكاية بفضل قدرات خارقة لأبطال أخيار لا ينهزمون بينما كانت القذائف تروي لأحياء حلب الشرقية كل ليلة قصصاً واقعي ة لا ينهزم فيها

الأشرار.

* * *

اشتد هطول المطر خارجاً فتشكلت سيول صغيرة انحدرت برشاقة على ملاسة زجاج النافذة التي كان يحدق من خلالها أبو ليلى إلى الخارج. غابت الحشود وراء خيوط الماء التي غزلتها الغيوم وبدا الناس كأنهم أشباح يتحركون في حلم ثقيل. صمت الركاب الضجرون وصاروا يحدقون مثل أبو ليلى إلى الخارج ينسجون من خيوط المطر الرفيعة مناديل يضمدون بها جراح أرواحهم الغائرة.

هاجت الذكريات.

والمطرُ، بإيقاع هطوله الرتيب ونقر حباته الأنيس على النوافذ، وكذلك نشيجُ المزاريب وصوتُ الفقاعات التي تزين البرك الصغيرة والحفر المليئة بالماء، كل ذلك يغذي ملكة التأمل ويشعل النيران في عش الذاكرة فيهيج دبابيرها. يصمت المرء حين تهطل الأمطار ليصغي لزخات نفسه الثرثارة وينصت حزيناً إلى الذكريات الغابرة وصدى الأيام الخوالي وهي تنقر نوافذ الخيال.

كان ذلك اليوم أيضاً يوماً ماطراً من نهاية نيسان 2016 وكانت ليلى وأولادها الثلاثة في ضيافة عمتها أم محمد في حي الحيدرية المتاخم لمساكن هنانو. استيقظ أبو ليلى في السابعة صباحاً قبل زوجته نازلي على وقع عاصفة رعدية فظنها قصفاً مكثفاً لحي مساكن هنانو الذي اعتاد هذه الأصوات المرعبة. صار يحوقل ويتذمر بصوت مسموع حتى أيقظ زوجته أيضاً:

– طيب وين الهدنة؟ مو على أساس في هدنة بين النظام والمعارضة؟ شو هالحالة هاي يا ربي؟

نهضت الزوجة المريضة وهي تبسمل وتتظر بفزع إلى زوجها الغاضب ثم انسلت ببطء من الفراش وذهبت تزيح الستارة الكتيمة عن النافذة المطلة على الشارع.

نظر أبو ليلى إليها بمحبة. كانت ترتدي ثوباً سماوي اللون يرسم تضاريس جسدها العجوز بألفة كبيرة. غزته مشاعر جياشة كثيرة. تذكر أيامهما الغابرة، تمعن في ردفيها المترهلين مثل تينتين ضخمتين مجففتين، تخيل كيف كانت عليه عجيزة زوجته قبل سنوات: مكورة ناعمة وصقيلة كأنها منحوتة من الرخام.

جذبه الردفان إليهما. جذبته ذكرى الردفين قبل أن يترهلا. نهض من الفراش بلهفة عارمة استغرها، نهض بطاقة عظيمة لم يعهد مثلها منذ سنوات واتجه إلى نازلي الواقفة عند الشباك تتمعن في المطر يدون سطور الماء بحبره الشفيف على نافذة البيت الشرقية.

طوق خصرها من الخلف بإحدى ذراعيه، شم رقبتها المجعدة بعينين مغمضتين ثم اقترب برأسه من رأسها حتى خالط الشيبُ الشيبَ دون أن يتفوه بكلمة وأصبح يحدق مثلها إلى قصائد الماء تنشدها السماء الغائمة.

لم تكن السماء وحدها تتلو على مسامع الأفق الغائم قصائدها الندية، كان الموت أيضاً يعزف ألحانه المعتادة على مسامع الأحياء الحلبية المنكوبة. اختلط هزيم الرعود بهدير المدافع وأزيز الرصاص.

– يا الله لوين راح تاخدنا؟

كاد أبو ليلى يصرخ في السماء الغائمة إلا أنه شعر بلمسة حانية من يد مرتجفة على يده المستقرة فوق بطن زوجته. كانت تلك يد نازلي. امتدت وصعدت ببطء إلى الأعلى حتى اتحدث بيد زوجها عبود العجيلي. تحسست خاتم الزواج الذهبي الذي لم يغادر أصبع زوجها منذ عشرات السنين. تذكرت أيام الخطوبة والزواج في زمن غابر. تفتحت في قلبها أزاهير برية جميلة، أغمضت عينيها واستسلمت لخدر لذيذ طالما خبرت معانيه بغريزة الأنثى وشهوتها المقدسة.

اشتبكت الأصابع التي عجنت السنوات وخبزتها. الأصابع التي أضحت كأغصان رفيعة متيبسة في أشجار الجرود القاحلة بعد أن تجف الينابيع وتتوقف الأمطار. اشتبكت الأصابع التي لم تترك بقعة من جسد الشريك إلا زارتها، لثمتها، خبرتها، تحسستها، استكشفت تضاريسها وتعرفت إليها. وبحركة سريعة ذات مغزىً فهمه أبو ليلى، أعادت نازلي الستارة لتضفي على حجرة النوم ظلمة أنيسة ثم صارت تحدق في عيني زوجها بعينين زادتهما الشهوة الطارئة بريقاً. تراجع الاثنان، في طقس مارسوه عشرات المرات، عن النافذة. تركا المطر ينقر برتابة وحزنٍ الزجاجَ الشفيف، تركا المدافع تزأر في الخارج، تتبادل

اللعنات وتغرس بذار الموت في الحارات والأزقة التي شبعت خراباً واتجها إلى السرير الذي كان كان لا يزال دافئاً.
– نازي
– عبودي
همس كل واحد منهما للآخر اسم الدلع بحنان مفرط. كان ذلك إيذاناً ببدء معركة الحب على السرير الذي لم يشهد معارك عنيفة منذ شهور سوى بعض المناوشات التي كانت تنتهي باستسلام الطرفين والخضوع لاتفاقية هدنة مفتوحة. غاب الحب وغابت طقوسه عن الزوجين مذ بدأت الحرب طقوسها اليومية المميتة في حلب، هدأت أعاصير الحب ولكن الحرب لم تهدأ، بل زادت ضراوة عما قبل.
نهشت الحربُ الحبَّ ورمت عظامه في زاوية كل شارع. اشتعلت نيرانها في كل الأحياء فاحترق الحب وتفحَّمت القلوب لكن نازلي وزوجها أبيا إلا أن يخوضا ذلك الصباح جولة جديدة من الحب الذي كان أواره قد هدأ.
مد عبود يده إلى عنق نازلي ثم أنزلها ناحية الصدر حتى وصل إلى ثدييها المتهدلين المتدليين كقنديلين قديمين في قصر مهجور. مرر سبابته الخشنة على الحلمتين، أحكم قبضته على الثدي الأيمن ثم انتقل إلى الثدي الأيسر الدافئ فشعر بنبض القلب المتسارع. كان الإثنان يلهثان بإيقاع متشابه. مدت نازلي أيضاً يدها إلى حاشية دشداشة زوجها فرفعتها ثم سارت بأناملها المرتعشة ببطء على الساقين النحيلتين ثم ارتقت إلى الفخذين حتى وصلت إلى الطائر النائم في عشه.
ازداد لهاثهما.
انتفض الطائر وانتصبت الحلمتان.
رفع عبود ثوب زوجته من الأسفل والتحم الجسدان العجوزان ينتقمان من الحرب التي بدت وكأنها لن تشيخ.
لم تكف المدافع في الخارج عن ترتيل نشازها، أنشدت عهرها القاتل بإيقاع أكثر شدة عما كانت عليه في الصباح الباكر فيما توقف المطر عن صخبه ورفعت الريح أوتاد خيام الغيوم لتبدو شمس ساطعة ترمق البشر المتقاتلين في سخرية صفراء فاقعة.

* * *

انتهت معركة الشهوة الطارئة بانتصار الجسدين العجوزين. تمدد الزوجان بعد أن انتهيا من وليمة الحب على السرير وأخذا يتأملان بصمت السقف الكئيب الذي تدلت منه ثريا جميلة لا ترى مصابيحُها الصغيرةُ النورَ إلا لماماً بينما تقضي بقية أوقاتها في سكون معتم.
أصبح مزاج نازلي رائقاً بقية النهار. أعدت بخفة وهي تدندن ألحاناً قديمة طعام الفطور والغداء. بدت وكأن الشباب عاد إليها. لم تعد تهتم بالقصف الذي بسط مائدته المميتة في حارات حلب وأزقتها: براميل، هاونات، بنادق آلية، دوشكا، راجمات وغير ذلك من أنواع الأسلحة.
حين غربت الشمس اشتكت نازلي من آلام شديدة في البطن. قالت لزوجها إنها تشعر بالغثيان وليست قادرة على تحمل الألم. ضحك عبود. قال لها بسخرية:
– بس لا تقولي لي إنك حامل؟ راح خبر ليلى مشان تجي تبارك لك.
– هلأ مو وقت مزحك. أصلاً لا تخبر ليلى بشي. اللي فيها مكفيها. خدني ع الدكتور. ما عاد فيني أتحمل أكتر.
أحس أبو ليلى الجدية والخوف في لهجتها. خرج من الشقة على عجل وقرع باب جار له يملك سيارة سوزوكي صغيرة لنقل الخضرة. لم يتوان الجار عن مساعدته. صعد أبو ليلى وجلس بجانب السائق، ثم ركبت نازلي وجلست بجانب زوجها لتنطلق السيارة صوب مستشفى القدس قريباً من المسجد الأموي الذي يسميه الحلبيون وأهل الريف جامعَ سيدنا زكريا.
كان المستشفى يعج بالجرحى المدنيين من الأطفال والنساء وبعض جرحى الفصائل المسلحة أيضاً. بدا الكادر الطبي مثل خلية نحل نشيطة لا تتوقف عن الحركة. أما طبيب الأطفال الوحيد المتبقي في المنطقة محمد وسيم معاذ والملقب بالدكتور معاذ، ببدلته الخضراء النظيفة ولحيته المشذبة وروحه المرحة، فقد بدا أنشط العاملين في خلية النحل تلك، ينتقل من هذا الطفل الجريح إلى ذاك، يواسي أهالي الجرحى، يلاعب الأطفال ويبتسم لهم، يخفف من معاناتهم قدر الإمكان ويطلق

النكات التي تشيع جواً من التفاؤل بين رواد المستشفى.
لم يكن صعباً على طبيب الداخلية أن يشخص آلام نازلي:
– زايدة. ع العمليات.
لا بد إذاً من استئصال الزائدة الدودية الملتهبة والمبيت يوماً لا أكثر في المستشفى بسبب الوضع الأمني الخطير وعدم وجود أسرة كافية.
– أنت روح يا حجي. بكرا المسا بتجي تاخد مرتك إن شاء الله. عملية الزايدة عملية بسيطة.
قالت الممرضة ريم ذات العينين العسليتين الواسعتين والسمينة قليلاً.
– ما فيني ضل معاها؟
سألها أبو ليلى بنبرة رجاء واضحة.
– حضرتك بتعرف الوضع الأمني الصعب وعدم وجود أمكنة للمرافقين. الأفضل يا حجي إنك تروح ع البيت وبكرا تجي.
ودع عبود زوجته. وجد في نظراتها شيئاً غامضاً لم يعرف كنهه. قال لها مواسياً:
– بكرا الصبح بكون عندك. خلاص لا تهتمي.
– دير بالك على ليلى وولادها.
قالت نازلي متأوهة بلهجة هي خليط من اليأس والحنان.
ابتسمت الممرضة الحلبية ريم، ضغطت بحنان على يد نازلي العجفاء، نظرت إلى أبو ليلى وقالت بثقة تامة:
– خلاص يا حجي. متل ما قلتلك. عملية الزايدة عملية سهلة وبسيطة وبكرة إن شاء الله بتجي تاخد خالتي وبتروحو سوا ع البيت. لا تاكل هم.
كانت الساعة تشير إلى السابعة مساء. فاحت رائحة المعقمات والكلور من ردهات المستشفى وارتفع أنين الجرحى والمرضى وصخب النزلاء والزوار والمرافقين وجلبة الممرضات والأطباء إذ يهرعون من هنا إلى هناك، بكاء الأطفال وصيحات بعض النسوة يطالبن الممرضات بتبديل أكياس السيروم المعلقة فوق النزلاء.
ترك أبو ليلى خلفه كل تلك الضوضاء وصار يصغي إلى عربدة المدافع تتمازج مع ضوضاء ذاكرته التي أنعشتها رائحة المعقمات. صار يصغي إلى صخب ذاكرته المثقلة بمشاهد بالغة القسوة.
فكر في كل ما جرى له ولعائلته ولحلب. لم يجد تفسيراً لكل ذلك. أهو عقاب رباني؟ أهي لعنة أصابت المدينة التي ترددت كثيراً في الدخول إلى المعمعة؟ كيف استيقظت الغيلان ومن أيقظها لتدمر هذه المدن واحدة تلو الأخرى وتهجر سكانها وتحصد أرواح الأبرياء دون تمييز بين مقاتل مسلح ومدني حاصرته الخيارات الصعبة؟ ماذا تريد كل هذه الدول من بلادنا ولماذا ليس بإمكانها أن توقف نزيف الدم؟ كيف يمكن للعالم أن يتفرج بصمت وربما بمتعة أو على الأقل بلامبالاة قاتلة على حفلات الموت هذه التي تزداد كل يوم؟ عشرات الألوف من القتلى وملايين الهاربين من هجير الحرب وعدد لا يحصى من المعتقلين والمفقودين والمعوقين. ألا يكفي كل هذا؟
فكر كيف تفككت عائلته، تشرد أبناؤه وتفرقوا، نزحت ابنته الوحيدة مدرسة اللغة الإنكليزية ليلى من منبج إلى حلب بعد أن خطف داعش زوجها الطبيب الجراح وأصيبت هي نفسها بلوثة عقلية.
– الملايين مثلي.
قال في نفسه وهو يصعد سيارة الأجرة عائداً إلى البيت.

* * *

أطفأ السائق المتجهم محركَ الباص فتوقفت الارتعاشة الرتيبة التي كانت تغذي ذاكرة أبو ليلى والركاب الآخرين بطاقة مجهولة. توقف المطر أيضاً وبدأت السماء تستيقظ من نعاس الغيم فظهرت شمس لامعة رسمت للأنقاض ظلالاً كئيبة. هدأ عزف أصابع المطر على نوافذ الباص الأخضر وأصبح بإمكان الركاب أن يروا مدينتهم التي يغادرونها بوضوح أكبر.
حدق أبو ليلى في الخارج حيث الأنقاض المغسولة لتوها بالمطر فرأى مقاتلاً يتنكب بندقية على كتفه مع امرأة ترتدي

حجاباً أسود وجلباباً طويلاً لونه أقرب إلى الأزرق، كان وجهاهما إلى الأنقاض وظهرهما للعالم، كتب الشاب شيئاً ببخاخة دهان أسود وسرعان ما ظهرت الحروف الأولى. ثم كلما تحرك الشاب المقاتل والفتاة إلى جهة اليسار ظهرت بقية الأحرف: را. راج. راجع. راجعي. راجعين. استلمت الفتاة علبة البخاخ من رفيقها وأضافت لكلمة "راجعين" عبارة "يا هوا" في استيحاء واضح من أغنية طالما تغنى بها العشاق في مشرق الظلمات.

"راجعين يا هوا".

ظهرت الكتابة المفعمة بالأمل وسط أنقاض أحد شوارع حي السكري بوضوح ثم دوَّن المقاتل الشاب ذو اللحية الخفيفة تاريخ خروجه وصاحبته ومئات مثلهما من حلب.:

15.12.2016

ابتعد الإثنان عن الجدار. التقط الشاب المقاتل صورة سيلفي له ولصاحبته مع العبارة التي دوناها قبل لحظات ثم اتجها إلى إحدى الحافلات.

– لوين بدنا نرجع يا هوا؟ إذا رجعنا راح ناكل هوا.

قال أبو ليلى في سره واستسلمت شفتاه لابتسامة شهيدة.

أصبحت حلب الشرقية بعد أشهر طويلة من الحصار وشهور من القصف المستمر منطقة غير قابلة للسكن والحياة. انعدمت فيها كل وسائل المعيشة وباتت أقرب إلى خرائب تسكنها الأشباح. تهدمت المدارس والمستشفيات والأبنية. سويت كثير من الدور بالأرض ومات الكثيرون تحت ركام الأنقاض. زلزلت حلب زلزالها ولم تكن العبارة التي وردت في كتاب البداية والنهاية لابن الأثير الجزري عن مأساة حلب في ظل المغول "وبقيت حلب كالحمار الأجرب"، بعيدة عن صفة حلب خلال أشهر القصف الرهيبة بل أصبحت حلب في ظل تلك الحرب العمياء والقصف العنيف الذي لم يميز بين الأهداف جثة فارس أثخنته الجراح ولم يجد من يسعفه فينتشله من ميدان المعركة فمات بعد أن نزفت جراحه كل الدم الموجود في شرايينه. ذهبت كل صيحات المنكوبين: "وينكون يا عالم؟" سدى دون أن تعود الروح إلى تلك الأحياء المدمرة في حلب. بل خرجت منها بقية الأرواح التي صمدت في الأزقة والحارات ليتم إعلان نعي شرقي المدينة على مسامع العالم كله.

* * *

الفصل السادس

ماتت نازلي.
هكذا بكل بساطة.
ماتت كما تموت كل امرأة في الحروب.
قالت الممرضة لأبو ليلى حين ذهب ليستلم جثتها:
– انقطعت الكهربا واضطرينا نعمل العمليات على ضوالموبايل. حتى موبايلاتنا للأسف فضيت بطارياتها وصار بدها شحن. قبل ما تدخل على غرفة العمليات كنت معها، صلت ع النبي وقالت : "كإني رايحة في مشوار طويل وما راح أرجع منو. إذا الله كتب لي عمر جديد راح أطلع من حلب على ضيعتي شرَّان". لما صار القصف كنت أنا تحت في الملجأ عم أسعف ولد جريح جاييبنو من قهوة الشعار. القصف كان رهيب. بالضبط متل ما عم يصير بالأفلام. ليش الأفلام؟ بالضبط متل ما عم يصير هون في سوريا كل لحظة وكل يوم. حسينا إنو القيامة قامت وإنو خلاص، الدنيا انتهت. نار ودخان وصوت انفجارات رجَّت المشفى كلو رج. كانوا المرضى والجرحى عم يصرخو ويستغيثو: إسعاف إسعاف. سمعنا هالكلمة من كل مكان. بس مين بدو يسعف مين؟ إذا الدكاترة ماتو بالقصف! إذ الممرضات اندفنوا تحت كتل الإسمنت! مين بدو يسعف مين؟ الدكتور معاذ انقتل. صار أشلاء، كل شقفة بمطرح. بعد شي نص ساعة طلعنا بالدرج وشفنا المشفى كلو مدمر ومليان دم والجثث في كل مكان. أنا بظن إنو خالتي ما حست على شي. قبل ما يساوو العملية بلش الضرب.
لم يكن أبو ليلى بحاجة إلى مزيد من الشرح.
ماتت زوجته واستلم جثتها. كانت ما تزال تلبس ثوب الجيرسيه السماوي الذي ضاجعها فيه صباحاً قبل أن ينقلها إلى المستشفى. بقع كبيرة من الدم المتخثر شكلت صوراً لورود حمراء على الثوب السماوي الشهيد. لم تكن نازلي قد ارتدت ملابس العمليات بعد حين داهم القصف ليل حلب الحزين وقطف عناقيد الأرواح. كثيراً ما كان الأطباء يجرون العمليات البسيطة في المشافي الميدانية دون أن يلبسوا المرضى ثياب العمليات التي لم تكن متوفرة دائماً.
قتلت نازلي قبل أن تنتهي عملية استئصال الزائدة لديها. ماتت وأخذت معها زائدتها الدودية الملتهبة.

* * *

ازدادت حال ليلى سوءاً بعد مقتل أمها. صارت تأتيها نوبات عصبية غريبة فتهذي وتتكلم دون دوقف ودون أن يكون هناك رابط يجمع جملها المبتورة الغريبة.
– ليلى جنت ع الخالص.
رددت عمتها أم محمد واقترحت على أخيها عبود قائلة:
– شو رأيك ناخدها ع الضيعة عند خوالها. بلكي تتحسن شوي وتنسى نفسها. حرام البنت راح تضيع من بين إيدينا.
لم يقبل أبو ليلى باقتراح أخته أم محمد.
– حلب قدرنا. ما راح نتركها. خلينا نموت كلياتنا هون ونندفن في ترابها.
– بس يا أخي....
– لا بس ولا مس. إذا راحت ليلى راح ضل لحالي وراح جن. كل واحد فيكون ملتهي بحياتو وولادو. خليها هون عندي بلكي بيفرجها الله.
– لو بدو يفرجها كان فَرَجها من زمان. ست سنين ونحن ع هالحالة. لا حل ولا بطيخ. أصلاً كلنا لازم نطلع.
– لوين بدنا نطلع؟ ع الزعتري ولا على عرسال؟ على مخيمات عنتاب ومرعش وغيرها ولا نروح نموت في البحر؟ وين ما رحنا موت وذل وقهر. نموت هون أحسن. ع القليلة في قطعة أرض نندفن فيها.
لم يوافق أبو ليلى على اقتراح أخته. بقيت ليلى بالرغم من كل جنونها وهذياناتها في بيت أبيها بمدينة هنانو في حلب

تتقاسم معه ومع أهل الحي خبز الخوف اليومي والقصف والدمار وغلاء المعيشة حتى قتلت ميسون بشظية عمياء وأصيبت ليلى التي لم تكن تكف عن الهذيان بالخرس التام. عندها لم يجد بداً من السماح لها بالذهاب إلى أخوالها في بلدة شرّان بعفرين لعلها ترتاح مما هي فيه من ألم الفقد على الأقل.

بقي أبوليلى وحيداً في حلب مثل شجرة هرمة على تلة موحشة. شجرة فقدت أغصانها وحفيف أوراقها وأعشاش الطيور التي كانت تؤنسها وحتى ظلالها ووالأنسام التي كانت تتسلى بالاختباء بين أوراقها الكثيرة. استوحش البيت الذي ما عادت تثرثر فيه رفيقة عمره نازلي. لم يكن يمزق صمت البيت وسكونه الرهيب سوى أصوات الحرب والاشتباكات. القصف بالبراميل، أزيز الرصاص ودوي الانفجارات. وزعيق ما تبقى من سيارات الإسعاف وصياح المسعفين وهم يخرجون الجثث والناجين من تحت الأنقاض. هاجر الكل أخواته وإخوته وأبناؤه لكنه بقي مصراً على أن يموت في بيته. أحياناً كان يدعو ربه أن تصيب قذيفة ما بيته فيطمره الركام.

– أحسن شي بهالحرب إنو الواحد منا يندفن ببيتو.

قال لأحد جيرانه ذات صباح ماطر. رد عليه جاره بعد أن أشار إلى مكان سقوط قذيفة:

– البلد كلها صارت مقبرة. اسمع اسمع. هاد صاروخ غراد.

– غراد ولا مراد. المهم تقتل أكبر عدد ممكن من الناس وتدمر بيوتهون. الله وكيلك جنو ربعنا. يا أخي هاي لا عادت ثورة ولا حرب على الإرهاب. هاد جنان. معقول كل هالتدمير؟ معقول؟ وهالدول ليش ما بيطفو هالنار؟ عم نحترق قدام عيونهون يا زلمة. ما عم يشمو ريحة لحمنا اللي بيحترق؟

– يا أبو ليلى عيفك من الدول هلأ.. شوف فصايلنا شو عملو فينا وشو عملو ببعض. كل فصيلة دولة لحال.

لم يعد يذهب إلى بيته إلا في ساعة متأخرة من الليل. صار البيت مأوىً ينام فيه فقط بينما يمضي سحابة نهاره وجزءاً من ليله الطويل يتجول مثل ذئب وحيد في الحارات المدمرة، يداه خلف ظهره يحدق في الأنقاض وشبابيك الشقق الخاوية المدمرة. يصادف بعض الهاربين من جحيم القصف فيهز رأسه بصمت، يقلب بصره بين سماء تمطر موتاً وأرض ينبت فيها الدمار. يقرأ ما دونه المقاتلون على الجدران من عبارات التحدي، يلتقي بقطط هزيلة تبحث عن أي شيء تأكله، كلاب شاردة تبحث بين الأنقاض عن جثث تنهشها، غربان تنعق إذ تحط على الخرائب، أسراب حمام جننها دوي القذائف فباتت تطير هائمة في السماء دون أن تحط على أي سطح.

– شو معنى إنك متمسك بحارتك؟ شو معنى عنادك وشو معنى إنو بدك تندفن هون؟ وين ما رحت في مكان تنقبر فيه. بلادنا كلها صارت مقبرة. ميت بيدفن ميت. قتيل بيشيع قتيل. مين راح يقرأ عليك الفاتحة، مين راح يدفنك أصلاً؟ بيجوز تجي هالكلاب الجائعة وتنهش لحمك قبل ما يتبرع حدا ويدفنك. وممكن تصير طعام للغربان اللي معبية سما البلد. راح يكون منظرك مقرف والغربان نازلة تنقر في عيونك. ما عاد في موت بكرامة بهالبلد. أصلاً ما ضل شي اسمو بلد. غابة وحوش بيلبق لها أكثر. حتى الموت صاير حلم. حياة مليانة قهر وذل وموت على كثرتو مهين ورخيص. ليش قليل الناس اللي انقتلوا وضلت جثثهون مرمية بالشوارع أيام وأيام من دون ما حدا يسترجي يشيلها خوفاً من القناص؟ حتى إنو في جثث تحللت بالشمس وما حدا بيعرف هي لمين؟ لك الكلاب الشاردة صارت تتغذى ع لحم الجثث يا ناس. مين بيصدق إنو هيك صار فينا، هيك صرنا وهيك صارت أحوالنا؟ إيييه يا دنيا يا شرموطة يا بنت ستين ألف شرموطة.

* * *

يوماً بعد يوم ساءت أحوال عبود العجيلي أبو ليلى. فقد جزءاً كبيراً من تركيزه. ما عاد يهاب القصف ولا رصاص القناص. مرات كثيرة كانت حواجز الفصائل المسلحة في الأحياء الشرقية توقفه ليلاً. يسأله عناصرها عن هويته، وعندما يفصح لهم عنها ويتعرفون عليه يتركونه بعد أن ينصحوه بعدم ترك المنزل في الليل والتجول في الحارات بينما الضرب شغال.

نُهِبَ منزله الذي اشتراه بمليون ليرة سورية حين كانت الليرة ليرة. دخل اللصوص إلى شقته في البناية نصف المهدمة والتي هجرها كل سكانها تقريباً فلم يتركوا شيئاً. النقود التي وضعها في صندوق صغير وأقفل عليه، البطانيات التي اشترتها نازلي من تركيا قبل الحرب وكانت ما تزال في حقائبها النايلون، التلفزيون، الثلاجة، ساعة الحائط، أدوات المطبخ والأجهزة

الكهربائية كلها حتى حذاءه الذي ارتداه يوم أخذ نازلي إلى المستشفى لتموت فيه تحت الأنقاض.
– عفشوا البيت كلو. بس كتر خيرون تركو لي التخت مشان نام عليه. حرامية بس ولاد حلال.
قال لأحد الهائمين مثله من جيرانه في الحارة المدمرة مرفقاً جملته الساخرة بابتسامة تشبه السكين.
اشتد القصف خلال الصيف ثم ازداد ضراوة في الخريف حتى باتت حلب الخبر الأول لدى وكالات الأنباء العالمية. راقب العالمُ خراب المدينة بصمت. لم تنفع صيحات الناشطين ولا استغاثات المسعفين والأطباء عبر قنوات التلفزة. كانت صيحات جارحة في وديان صماء لا تقبل حتى بترديد الصدى. بات جلياً أن الكل سحب يده من حلب وأنها على وشك السقوط.
– باعوها.
ردد الناس.
من باعها ولمن؟ وهل كانت حلب ستصمد دون بيع؟ هل كانت هذه الفصائل المتناحرة الهزيلة قادرة على ردع اللعنات القادمة من السماء المستباحة؟ أسئلة لم يطرحها أحد على أحد. ففي الحروب ليست ثمة شفاه تتقن أو تجرؤ على طرح الأسئلة وإن وجد من يطرحها فليست هناك آذان تستعد لسماعها.
– سقطت حلب.
لم يبق أمام المقاتلين والمدنيين المتبقين في الأحياء الأخرى من خيار سوى الصعود إلى الحافلات الخضراء التي صارت رمزاً لانتصار قوات الحكومة.
وفي اليوم الشتائي ذاك، في منتصف شهر كانون الأول من عام 2016 عثر بعض شباب الجيش الحر على أبو ليلى جالساً أمام باب البناية يحدق في السماء باحثاً عن طائرة مفترضة تريد أن تنقض على الحي. قال له أحد الشباب:
– اطلع يا حجي. الناس كلها راح تطلع. بدنا نخلي الحارة.
– تخلوها؟ ليش خليتو فيها شي لتخلوها.
– يا حجي عم بحكي جد. بدنا نمشي.
– تمشو؟ خير لوين؟. مستأنسين يا إبني. ما تجو تشربو معي كاسة شاي؟ ما تجو تسلمو ع هالخراب؟
غمز الشاب لرفاقه مشيراً بسبابته إلى صدغه ثم قال هامساً:
– الحجي بايعها.
– بايعها ولا مو بايعها. لازم ناخدو. بقيان لوحدو بالحارة ووضعو مو مظبوط.
رد أحد رفاقه ثم خاطب أبو ليلى:
– يا حجي ما ضل حدا بالحارة ولا بغير الحارات. خلاص. الله هيك كتب علينا. بس راجعين بإذن رب العالمين.
اقتنع أبو ليلى بكلام الشباب لكنه قبل أن يصحبهم قال:
– ونعم بالله يا إبني. بس لو تسمحو لي في عندي جنتاية صغيرة وكم غرض راح جيبهون من فوق وأرجع.
– يالله يا عمي الحج يالله، عجل شوي عم نستناك.

* * *

قبل أن تمر عشر دقائق عاد أبو ليلى ومعه حقيبة صغيرة سوداء يشدها إلى صدره بحرص شديد كما لو أنه يحتضن كنزاً. صعد بصمت إلى صندوق سيارة البيكاب البيضاء لتنطلق به وبالشباب المسلحين صوب حي السكري حيث تنتظر حافلات خضراء عديدة لتأخذ فيما بعد ركابها إلى معبر الراموسة حسب الاتفاق المبرم.
كانت في صندوق السيارة، التي بدأ الطين البني ينقذف من تحت عجلاتها، عجوز مجلببة بالسواد لا يبدو منها سوى وجهها الذي بدا مثل أرض صخرية قاسية التضاريس تشد بيديها على كيس مكتوب عليه: روسيا معكم. قرأ أبو ليلى العبارة وكاد يقهقه وهو يتنقل بنظراته بين الأنقاض التي تمر منها السيارة وبين العبارة المكتوبة على كيس المعونات الروسية. لم يتكلم. لم يسلم حتى على العجوز التي كانت مثله مشغولة بهواجسها وخواطرها في تلك اللحظة. تبادلا الابتسامات

المُرة وآثرا ألا يتحدث أحدهما إلى الآخر كأنه اتفاق مسبق بين الإثنين. كأنهما يعلمان أنه لا تنفع الكلمات في لحظات قاتلة مثل تلك وأن الصمت هو الحديث الأكثر بلاغة من كل بيان آخر.

حدق أبو ليلى في المبنى نصف المدمر الذي ابتعدت عنه السيارة. ابتلت عيناه. تغضن جلد وجهه وهو يضيق عينيه محاولاً أن يطبقهما على المشهد الذي يغيب عنه: الشارع الكئيب الذي يقع فيه بيته المنهوب في بناية دُمِّر نصفها الأعلى. شعر في تلك اللحظات بأيادٍ خشنة تنتزع قلبه الذي صار يدق بتسارع. أحس بألم فظيع في الجانب الأيسر من صدره. أطبق ساعديه على الحقيبة بكل قوته وضغط بها على صدره كأنه يعالج الألم الطارئ بما في تلك الحقيبة. حاول أن يبقي عينيه مفتوحتين تحدقان في الحارة التي كانت تصبح الآن شيئاً من الماضي. هبت نسمة باردة أجبرته على إطباق عينيه فنزلت منهما دمعتان ساخنتان وانحدرتا على وجنتيه. بردت الدمعتان في زمهرير كانون فشعر بلسعهما. تركهما تنحدران دون أن يمسحهما. لم يشأ أن يترك الحقيبة الكنز حتى وصلت السيارة أخيراً إلى الشارع الذي ترادفت فيه الحافلات مثل درب معشب نحيل يخترق شارعاً في حي السكري بمدينة حلب يمتد بين أطلال بدت لانهائية.

بعد أن صعد أبو ليلى الباص ألقى نظرة خاطفة على الحقيبة التي وضعها بجانبه وتحسسها بيده كأنه يطمئن على وجودها معه ثم رفع رأسه لينظر عبر زجاج النافذة إلى الخارج فرأى البخار غطاه من جديد فمسحه بكم معطفه وثبت نظراته حيث كانت قبل قليل حركة دائبة للنازحين والمقاتلين.

لم يكن قد بقي أحد هناك سوى الصمت والركام. بدت المنطقة مثل مقبرة مهجورة. استقل الجميع الحافلات الخضراء التي كانت تنتظرهم. فجأة هدر محرك الباص من جديد وانطلق يتبع الباصات الأخرى التي سبقته. بقي السائق على صمته وتجهمه. لكنه مد يده إلى أحد السيديات ووضعه في مسجل السيارة ليبدأ مطرب سوري مشهور أغنيته:

مجدك ياقلعة حلب

ع جبين الشمس انكتب

وبراجك عشقانة الريح

وترابك والله دهب

هز أبو ليلى رأسه وقال دون أن يسمعه أحد:

وبراجك صارت بالأرض وترابك دم يا حلب.

حين غادر الباص حلب الشرقية أحس أبو ليلى بآلام شديدة في الجهة اليسرى من صدره لم يعهد لها مثيلاً.

الفصل السابع

اختفى الباص الأخضر من الشارع الذي ترادفت فيه القافلة الخضراء صباحاً، وترك الأنقاض على حالها. زفر أبو ليلى بعمق كما زفر ركاب القافلة جميعاً، خالطهم شعور غريب هو مزيج من الحزن والفرح الذي لا بد أن يرافقه التأمل العميق. مد أبو ليلى يده غافلاً عن بقية الركاب وأحزانهم إلى أحد جيوب معطفه فأخرج مجموعة من الصور وصار يحدق فيها. أراد أن يقاوم قساوة الحاضر بنضارة الماضي، أراد أن يعوض عن أحزان اللحظة القائمة بسعادة ما مضى من أيام فلم يكن أمامه سوى السفر إلى أيامه الغابرات عبر ما التقطته كاميرات الهواتف النقالة والكاميرات الفورية وغيرها.

كانت الصورة التي ظهرت أولاً لابنه عبد الناصر الذي قتل في حرب المخيمات في بيروت. يرتدي بدلة مموهة، بدلة القوات السورية الخاصة، ويعتمر بيريه حمراء مائلة على الجانب الأيمن يلمع في مقدمتها نسر ذهبي كبير. كان عبد الناصر يقف بشموخ يليق بشاب في مقتبل العمر ويداه تقبضان على خصره من الطرفين كعادة الشباب في ذلك الزمان.

كانت صدمة مؤلمة حين جاء الخبر باستشهاد ابنه في الجبهة. هكذا نقلوا له خبر ابنه الذي لم يستشهد في الجبهة، إنما شارك حركةَ أمل في الهجوم على برج البراجنة ليصيبه رصاص قناص فلسطيني في صدره ويموت في أرض المعركة.

بقيت أمه قرابة سنتين لا تنزع عنها ثياب الحداد ولم تسمح لزوجها خلال سبعمئة يوم من الحزن المستمر أن يقرب منها.

تنهد بعمق ثم وضع الصورة في المقعد الفارغ بجانبه وأخرج الصورة التالية.

ظهرت صورة عمر مبتسماً في قميص أبيض مفتوح الأزرار حتى المنتصف وتغمر وجهه النحيل لحية خفيفة وشعرٌ مائل للطول. كان عمر واقفاً أمام بوابة قلعة حلب وبجانبه على ما يبدو سياح أجانب يبتسمون مثله للكاميرا. خطر على بال أبو ليلى أن يقلب الصورة وينظر في ظهرها. كانت عبارة مكتوبة بخط يد عمر تزين ظهر الصورة. أبعد أبو ليلى قفا الصورة قليلاً وصار يقرأ في ما يشبه الهمس: "الذكريات سكين قد ننتحر بها أحياناً". عاد أبو ليلى فقلب الصورة وصار يحدق في وجه ابنه الوسيم.

كان عمر طالباً في كلية الآداب يدرس اللغة الفرنسية وكان مولعاً بتصيد السياح الفرنسيين خاصة، يتبرع بأن يصبح لهم دليلاً سياحياً ليقوي لغته الفرنسية، يأخذهم إلى حلب القديمة وأبوابها السبعة والقلعة والأسواق القريبة منها والخانات حتى صار عمدة في موضوع السياحة وتحسنت لغته الفرنسية كثيراً. ظهرت في أعلى الصورة بضع حمامات تطير في سرب فوق جامع الكلتاوية إلى الشمال الشرقي من القلعة. بدا أنها تطير مطمئنة غير خائفة من شيء بعكس الحمامات التي عاينها أبو ليلى في الأيام الأخيرة تطير كل واحدة منها في اتجاه فزعاً من أصوات الانفجارات.

وضع الصورة بجانبه حيث استقرت قبل قليل صورة ابنه الأكبر عبد الناصر وسحب الصورة الثالثة: صورة عاصم وهو في سترة النجاة البرتقالية بعد أن وصل إلى البر اليوناني. بدا عاصم سعيداً جداً بالرغم من الإرهاق الظاهر على ملامح وجهه. يرفع يديه بعلامة النصر كأنه خارج من معركة. خلفه زورق مطاطي تلعب به الأمواج وسترات نجاة كثيرة خلعها أصحابها ورموها على الرمل الذي يليه بحر من الزرقة اللانهائية.

تنفس أبو ليلى الصعداء. شعر كأنه هو الذي وصل إلى أوربا ونجا من معمعة بلاده التي طحنتها الحرب. وضع صورة ابنه الذي عزف على أوتار المغامرات جانبه ثم حدق في الصورة التالية: صورة علي وهو يعزف البزق.

كاد أبو ليلى يسمع عزف ابنه. كاد يعرف المقام الذي يعزفه. نعم. كان علي مولعاً بعزف ألحان أغاني فيروز خاصة أغنية نسم علينا الهوى من مفرق الوادي.

– الله. الله الله. قديش كان عزفك حلو يا علي.

قالها العجوز في قلبه ووضع الصورة جانباً ثم حدق عبر النافذة إلى الشوارع المقفرة التي يمر منها الباص الأخضر بركابه الذين ابتلعهم الصمت فجعلهم أنقاض بشر.

هاله أن يرى الظلام يعم الأحياء المهدمة التي يمر منها الباص. الوقت قبل الظهر فما هذه الحُلكة المفاجئة؟ سأل أبو ليلى نفسه ولم ينتظر الجواب.

كان غريباً أن يحل الظلام مبكراً جداً. إنه منتصف النهار. نظر أبو ليلى إلى ساعته القديمة ماركة سايكو ذات الميناء الأزرق

والأرقام الفوسفور. كانت تشير إلى الثانية عشرة وعشر دقائق. صحيح أن الجو غائم وهناك بعض المطر الرذاذ لكن هل يمكن أن تحل الظلمة باكراً بهذا الشكل مهما كانت الغيوم كثيفة والأمطار غزيرة؟.
ترك أبو ليلى التفكير في أسباب الظلمة الطارئة وسحب صورة جديدة من الصور التي أتى بها على عجل من شقته قبل قليل.
أطلق آهة هامسة ثم رفع الصورة الجديدة التي سحبها للتو قريباً من عينيه اللتين أتعبتهما رؤية الأنقاض فوجدها صورة ملونة لصهره الطبيب الجراح فرهاد واقفاً بجانب ليلى وأولادهما الثلاثة في أحد ستوديوهات التصوير في بلدة منبج. كانت ليلى تحتضن ابنتها الصغيرة ميسون ذات العامين وعلى رأسها قبعة صوف بيضاء تتدلى قدماها الصغيرتان إلى الأسفل بدون جوارب ولا أحذية بينما وقف كاميران أمام الكاميرا وقد ارتسمت على ملامحه تعابير مضحكة فيما وقف آلان، بين ساقي أبيه المبتسم، وهو ينظر بعيون غاضبة إلى الكاميرا.
مرر أبو ليلى بإبهامه الخشن على وجه ميسون الناعم في الصورة، ثم مررها على القدمين الصغيرتين الحافيتين وكأنه يريد أن ينقل إليهما دفء إبهامه. حدق في العينين الجميلتين لابنته الوحيدة التي فقدت عقلها وانتقلت بعدموت أمها ثم مقتل ابنتها إلى بيت أحد أخوالها في شَرَّان شمالي عفرين حيث سبقها علي أخوها الأكبر منها إلى هناك. تذكر يوم قصفت المروحية حيَّ مساكن هنانو بالبراميل، تذكر هول ذلك اليوم الصادم وما تلاه فضاقت نفسه وسرعان ما أخفى الصورة عن عينيه وسحب واحدة أخرى كانت الأخيرة في ترتيب الصور.
داهمته نوبة ألم أشد من الأولى في صدره فلم يأبه بها أيضاً. حانت منه التفاتة سريعة إلى الخارج عبر زجاج النافذة فرأى أن الظلمة قد اشتدت أكثر حتى بدت الدنيا كأنها مطلية بالقطران.
– ممكن بسبب البرادي.
قال أبو ليلى لنفسه معتقداً أن ستائر النافذة هي السبب فيما يراه من ظلمة. ولما رأى الستائر غير منسدلة، بل لما رأى نوافذ الباص بلا ستائر أصلاً عاد إلى الصورة الأخيرة يحدق فيها بلهفة يشوبها الحزن.

* * *

بعد دقائق من انطلاق الباص أصبح يسير في خط مستقيم لا ينعطف يميناً ولا شمالاً وبإيقاع رتيب من السرعة. وصار واضحاً من هدوء الركاب أنهم إما أخلدوا إلى النوم من التعب والإرهاق أو أنهم خَلَوا إلى همس النفس وصخب الأفكار. لم يكن غير الصمت ليليق ذلك الصباح الحزين بركاب، مسلحين ومدنيين، أجبروا على ترك مدينتهم بموجب اتفاق بين اللاعبين الكبار في ساحة المعارك الأخيرة في حلب. لم يكن أمام المقاتلين الشرسين سوى الإذعان لرغبات الحلفاء الكبار المشرفين على صفقات بيع المدن والأحياء والفصائل والثورات والثوار وحتى الضمائر أيضاً كسلعة قابلة للمساومة.
انكب أبو ليلى، فور انطلاق الباص، على التحديق في الصور التي نزعها على عجل قبل أن يغادر منزله. كان بعض تلك الصور معلقاً على الجدران بينما كان بعضها الآخر مثبتاً إلى المرايا موضوعاً بين الإطار الخشبي وزجاج المرآة. نزعها حيث وجدها وهو يشعر بأنه ينزع قطعاً من روحه لا يجب أن تبقى خلفه ينهبها الناهبون.
سمح الضوءُ الشحيح داخل الحافلة برؤية الصورة الأخيرة التي كانت بين يدي أبو ليلى. لم تكن تلك سوى صورة بالأبيض والأسود تضمه هو العريس وعروسه الكردية نازلي في حفل الزواج جالسين على كنبة صغيرة وراءهما سجادة معلقة على الحائط منقوشة عليها صور غزلان ترعى في أيكة جميلة قرب غدير ماء. كانت نازلي ترتدي ثوب العرس الأبيض وعلامات الحياء الممزوج بالسعادة مرسومة على وجهها المدور الجميل فيما أحاطت بها بعض النسوة يصفقن مبتسمات.
حين بحث أبو ليلى في البيت، خلال الدقائق العشر، وفكر في أغلى شيء لديه يأخذه معه لم يجد سوى الصور التي عاينها الآن بلهفة وذلك الثوب الذي ظلت نازلي تحتفظ به في خزانتها عشرات السنين. لم تكن إلا قليل من العرائس ممن يحالفهن الحظ فيتزوجن من رجال أثرياء يرتدون الثوب الحلم، أما الباقي فكن يكتفين بأي ثوب ولم تصبح عادة ارتداء الثوب الأبيض في مجتمعات الأرياف دارجة إلا بعد انتشار التلفزيون ابتداء من سبعينيات القرن العشرين ثم أصبح الثوب من لوازم العرس وضرورياته.

ذهبت نازلي مع والديها إلى حلب، حسب ما روت لزوجها ذات سهرة، واشترت الفستان الأبيض من محل شهير في سوق المدينة المسقوف قرب القلعة. اختارت ما وجدته أمها فستاناً صارخاً لأنه يكشف عن الساعدين لكنها أصرت أن تشتريه هو بالذات وليس غيره. بعد أخذ ورد أذعنت الأم لإرادة ابنتها المدللة.
كانت المفاجأة كبيرة لدى أهل عبود العجيلي ولديه هو أيضاً. ذهلت النساء اللواتي حضرن حفل الزفاف من الأناقة التي ظهرت بها العروس الكردية نازلي. ذهلن من ساعديها العاريين وفستانها الأنيق وتصفيفة شعرها ومكياجها. بات عرس عبود ونازلي حديث الناس لشهور عديدة.

* * *

بدأ الباص الأخضر يسير بهدوء غريب، اختفى صوت محركه دون أن ينتبه أبو ليلى إلى ذلك. كان غارقاً في تأمل صوره الحميمة التي لم يجد أغلى منها في بيته الذي نهبه لصوص الحرب وتركوا له الصور وبعض الأشياء التي ربما اعتبروها تافهة لا قيمة لها أو لم يجدوا وقتاً لأخذها معهم.
مد يده بهدوء إلى الحقيبة التي دسَّ فيها فستان نازلي، أخرجه ووضعه في حضنه وأغمض عينيه كأنه يطبقهما على الكنز المقدس. صار يلمس الفستان برقة وحب، يضمه بقوة، يشم منه روائح الزمن الغابر ويحدق فيه كأنه يريد استحضار الماضي بكل تفاصيله المنسية المبهجة.
مرت الذكريات في خياله مثل باص أخضر يعبر أنقاض مدينة مهجورة.
التفت أبو ليلى إلى يمينه ليتبين ملامح الطريق التي يمر بها الباص فلم ير غير الظلام. اعتدل في مقعده وهو يتنهد بعمق ثم التفت إلى جهة اليسار ليرى ما جعله يخرس لدقائق قليلة مرعوباً مشدوهاً غير مصدق.
كانت زوجته نازلي بثوبها الجيرسيه السماوي الذي ارتدته يوم العملية وقد ظهرت عليه بقع واضحة من الدم. أخرسه الفزع. ظل يحدق في ثوبها تارة وفي وجهها الذي ارتسمت عليه ابتسامة حزينة تارة أخرى. كانت هي ترمقه بنظرة فيها حزن وعتاب كبيران. وحين همَّ أن يتكلم باغتته بسؤالها:
– ليش تركت البيت يا عبود؟
حاول أن يرد، تلعثم فأتبعت نازلي سؤالها بآخر:
– ايمتى راح نصل؟
تجمد أبو ليلى في مكانه. رد بصوت مرتجف دون أن يحيد ببصره عن زوجته التي كانت تجلس بجانبه:
– ما بعرف.
مدت نازلي يدها وأمسكت بيده الخشنة ومسحت عليها بحب.
– بعرف إنك خايف وعم تسأل حالك كيف قدرت أجي معك؟ كلياتنا ميتين يا عبود. وأنت ميت أكتر مني. أنا بعرف إنك بحاجة لإلي حتى ما تموت. بس أنت ميت مثلي تماماً. أنا شفتك لما طلعت الدرج ع البيت وجبت الصور وفستان عرسي. فرحت كتير لما شفتك بتحبني حتى بعد موتي. شفتك لما طلعت ع الباص ومعك الشنتاية اللي فيها فستان عرسي. قررت أجي معك. روحي ما تحملت فراقك عن حلب يا أبو ليلى. نحن يالليي بنموت بالقصف ما نقدر نموت. قصدي إنو المفاجأة ما بتخليلنا مجال نفكر بموتنا. نضل عايشين ونستنى نرجع على بيوتنا. كنت حابتك تضل بالبيت شو ما صار. الميت بيشتاق لبيتو أكتر شي. ألف قبر وألف كومة تراب ما بتقدر تطفي نار الشوق اللي جواتنا. بنضل نحاول ونحاول ونحاول لحتى نرجع، قصدي لحتى ترجع أرواحنا.
أحس أبو ليلى بيد زوجته باردة كالثلج. لم يجد فيها دفء الحياة. نظر في عينيها. لم يجد فيهما البريق الذي كان يجذبه إلى أعماق الشهوة كلما تأملهما. لم يجدهما تلتمعان بالحب كما في كل مرة جمعتهما جلسة حميمة.
كيف يمكن لهذا أن يحدث؟ سأل نفسه قبل أن يعود إلى مواصلة الحديث معها. خَفَّ رعبه قليلاً حين سمع من المقاعد الأخيرة عزفاً شجياً على البزق. كان لحناً طالما سمعه في البيت. ابتسمت نازلي ابتسامة ميتة. التفتت إلى الوراء ثم وضعت فمها على أذنه وقالت:

– هاد ابنك علي.
– علي؟
نهض أبو ليلى والتفت إلى الوراء. كان ابنه علي فعلاً. يعزف لحناً كردياً حزيناً من ألحان جبل الكرد في عفرين. ذهل حين رأى ابنته ليلى أيضاً تحتضن ميسون النائمة وبجانبها ولداها كاميران وآلان يبدو عليهما الإرهاق الشديد. كاد يقع مغشياً عليه. تناهبته الأسئلة. أين أنا؟ وكيف تحول المشهد من باص مليء بنازحي حلب مقاتلين ومدنيين إلى باص يحمل عائلتي فقط؟ هل مت أنا أيضاً؟ أم هل عادت ميسون ونازلي إلى الحياة؟ هل ركب هؤلاء معي ولم أشعر بهم؟ هل ما أراه حقيقة أم أنه كابوس؟ هل هي نوبة من نوبات الهلوسة التي صارت تنتابني في الأيام الأخيرة في حلب؟ أهي تهيؤات؟ هل كل ما حدث لي في الأشهر الأخيرة من حياتي من موت زوجتي وقبلها حفيدتي في القصف وغياب صهري على يد داعش وفقدان أي أثر لولدي عمر كان وهماً وخيالاً محضاً أم أن ما أراه الآن ليس سوى وهم وخيال ومجرد هلوسات؟ ومن هناك؟ آه. إنه عاصم. ثيابه تقطر ماءً، ما زال يرتدي سترة النجاة البرتقالية ويستمع بحزن إلى عزف شقيقه. ألم يصل إلى اليونان؟ لقد أخبرني بنفسه أنه وصل إلى البر اليوناني ونجا من الأمواج الشرسة! وذاك الذي بجانبه؟ يا إلهي! ماذا أتى به أيضاً؟ إنه عبد الناصر ابني الذي دفنته بنفسي قبل ما يقرب من ثلاثين عاماً. عاد من بيروت جثة هامدة مضرجاً بدمائه بعد أن قتلته رصاصة قناص فلسكيني كما قال الضابط الذي قام بتسليم الجثمان. ها هو يحمل الآن بيده كتاباً يتصفحه بتجهم. ثلاثون عاماً من الموت أبقت عليه فتىً كما كان لحظة استشهاده.
كاد أبو ليلى ينادي على أبنائه وابنته من اللهفة لكن نازلي أمسكت بيده ودعته للجلوس.
– كلون معنا هون بالباص. بتشوفون بعدين. تعال أحكي لك شو صار معي بالمستشفى.
كانت قوة غامضة وسحر لا يقاوم في صوتها المبحوح قليلاً كأنها تعاني من نزلة برد. شعر أبو ليلى بأنه لا يملك قرار الرفض وأنه لا بد أن يذعن لأمر زوجته. أحس بيدها مرة أخرى باردة لا حياة فيها. لكن هذا الصوت! هذا الصوت لا يصدر إلا عن إنسان تسري الروح في جسده.
بقي أبو ليلى في مجلسه مذهولاً. لم يتكلم. نظر بانتباه إلى زوجته مبدياً لها أنه يستعد لسماع حكايتها.
* * *

"بعد ما رحت ع البيت يا عبودي، أخدتني الممرضة لتلبسني ثوب العمليات. كان في جرحى كتير كتير. معبين الغرف والكوريدورات ومتكدسين فوق بعض. كان في ناس عم بتموت وما في مين يسعف. الممرضات كانت عم تصيح: دم دم والدكاترة يركضو من هالقرنة لهالقرنة. شفت كمان ناس جاي تتبرع بالدم. كانت الدنيا عتمة وكنت عم بتوجع كتير. خفت الزايدة تنفجر معي قبل ما يعملو لي العملية. قلتلها للمرضة يا بنتي الله يخليكِ خلصوني أنا ما بقدر أتحمل. قالت لي اصبري يا خالة لبين ما يجهزو غرفة العمليات. تركتني وراحت نزلت لتحت. هي راحت من هون وانا سمعت من هون صوت انفجار هز المستشفى كلو. تقول كإنو الأرض تزلزلت أو القيامة قامت. كنت قاعدة على كرسي صغير عم أنتظر دوري. ما شفت إلا قطعة كبيرة من السقف وقعت علي. حسيت بألم كبير لما تهشم راسي. بعدين ما عاد في وجع. الله وكيلك حتى وجع بطني راح. صدقني تقول كإنو مو أنا اللي كنت خايفة موت من انفجار الزايدة قبل شوي. صرت ميتة. حلو كتير لما يكون الواحد ميت. ع الأقل ما بيعود بيحس بأي شي. لا ألم ولا أي شعور آخر. الموت مو صعب متل ما كنت عم بتصورو. بتعرف أبو ليلى؟ ما لازم الواحد يحزن أبداً عاللي بيموت. كل مين مات ارتاح. ارتاح من هم الحرب ومن هم الخوف من الموت بأي لحظة ع الأقل".
صمتت ليلى قليلاً ثم أردفت:
– سبحان الله أنا كنت خايفة من الموت بانفجار الزايدة قمت متت من انفجار برميل.
ضحكت نازلي عقب جملتها تلك ضحكة خرساء وجمدت ملامح وجهها.
حين أحس أبو ليلى أن زوجته انتهت من سرد حكاية مقتلها التفت مرة أخرى إلى الوراء ونظر بحزن إلى حفيدته النائمة ميسون. كانت ليلى أيضاً نائمة، وكذلك ابناها كاميران والصغير آلان فيما استمر خالهما علي يعزف ألحانه الحزينة

الخفيضة. خطرت بباله أسئلة كثيرة ليطرحها على زوجته الميتة. أسئلة لجوج تقافزت مثل أسماك صغيرة وقعت في شبكة ضيقة الثقوب. لكنه لم يجد سوى سؤال واحد وحيد أولى من غيره:

– شلونك هلأ نازي؟ عم تتوجعي شي؟

– الميت ما بيتوجع يا عبودي.

أصغى أبو ليلى إلى جواب زوجته محدقاً في عينيها اللتين لا بريق فيهما. التفت للمرة الثالثة إلى الوراء ليتعرف على بقية الجالسين في مقاعد الباص الخلفية.

– كلون هون. كلون بالباص رايحين معنا.

قالت نازلي حين رأته كذلك ثم نادت بصوت مبحوح مرتفع قليلاً عن نبرتها التي كلمت بها زوجها عبود:

– قربوا شوي. قربوا لهون.. أبوكم بدو يشوفكم.

– بابا؟

صاح عاصم بلهفة. كان لصرخته صدى موجة حزينة. ترك مقعده في الخلف، ترك أخاه العازف في منتصف اللحن وتقدم صوب أبيه. لمعت في ضوء سقف الباص الشاحب خطوطُ الفوسفور في سترته البرتقالية. فاحت منه رائحة البحر حين وصل قريباً من المقعد الأمامي الذي تجلس فيه أمه بجانب أبيه. ارتمى في حضن أبيه وصار يجهش. زجرته أمه:

– حاج يا عاصم. حاج يا ابني. راح تفيق أختك المسكينة ليلى. حرام صار لها يومين ما نامت.

هدأ عاصم كموجة انكسرت على شاطئ صخري ولم يبق منها سوى زبدٍ يتلاشى.

تبللت دشداشة أبو ليلى. تبللت لحيته من ماء البحر الذي كان لا يزال يقطر من ثياب ابنه عاصم وشعره.

– كيفك يا إبني؟ إن شاء الله ما تعبت بالسفر؟ كيف كان البحر معك؟

– البحر؟

قالها عاصم متنهداً ثم واصل بنبرة حزينة أرادها مثل همسة:

"البحر يا أبي ما كان أقسى من هالحرب اللعينة اللي سببت كل هالدمار. ما كان أقسى من شغلي أنا ومرتي وولادي بمعامل التكستيل بتركيا. البحر وحش كاسر بس لما بدو يحن يصير متل الأم. يحضن الواحد بحرارة حتى لو كان بنص الشتا. بتحس كإنو بيشفق عليك وبيحب يراضيك. بيغنيلك لحد ما يخليك تنام متل طفل صغير. بس لما يعصب بتحسو كسارة حجر. موجة ورا موجة بتسحق روحك وبتشدك لتحت لحتى تغرق.

قبل ما نطلع ع البَلَمْ خفنا كتير. ولما صار بنص البحر وابتعد عن منطقة آيفاليك شمال إزمير بساعتين قلنا هلأ راح تطلع أرواحنا كمان. كنا ناس كتيرين. أكتر شي بيناتنا كانوا عراقية وأفغان. الرحلة ما طولت كتير. بعد ساعة ونص وصلنا ع الجزيرة. تتذكر؟ دقيتلك تلفون وحكيت معك. بعتت صورتي كمان. قبل ما نطلع ع البلم حطيت مصرياتي وهويتي والباسبور في كيس نايلون ولفيتون على خصري. هيك وصانا المهرب وحكى لنا إنو في ناس كتيرين وصلو لأوروبا بس تبللت وثائقهون الشخصية وهوياتهون وما قدرو يثبتو إنون مواطنين سوريين ولحد هلأ ما آخدين إقامات".

– وأنت؟ إن شاء الله أخدت الإقامة؟ ضل بالنا عندك يا إبني. ما إجانا منك غير هداك الاتصال.

– أنا ما وصلت لأوروبا يا أبي. أنا متت.

– متت؟ شلون هيك.

فزعاً حدق أبو ليلى في عيني ابنه عاصم الجافتين. كان جلد وجهه أيضاً يابساً. لم يكن يختلف بملامحه الجامدة عن أمه التي ابتعدت عن المشهد لتذهب وتجلس في مقعد خلفي بعيد دون أن تصغي لحديث ولدها عاصم الذي صار يحكي قصة موته لأبيه المذهول:

"بعد يومين من إقامتنا في ميتيليني إجت سفينة كبيرة. ركبونا فيها. كانت سفينة من طابقين مليانة لاجئين. أنا كنت بيناتهون. كنت فرحان متل البقية. فرحان بوصولي لليونان. شي ميتين راكب صرنا جوا السفينة. الله وكيلك بابا تقول حبة تين وتجمعت عليها عشيرة نمل. لما مشيت السفينة وصارت تبعد عن جزيرة ليسبوس، هيك إسمها، تذكرت بناتي ومرتي،

تذكرتك أنت وأمي وإخوتي وليلى وأولادها، تذكرت حلب وحياتنا البسيطة الحلوة قبل ما تتزلزل بلادنا وتتدمر. حبيت إبكي بس خجلت من الناس اللي حوالي، قمت طلعت لفوق، لأعلى نقطة بالسفينة. هبت نسمة باردة وصارت تضرب وجهي. دمعو عيوني. دمعو كتير حتى صرت ما أشوف البحر. البحر كبير يا أبي. كبير. كبير كتير متل مصيبتنا اللي وقعنا فيها من خمس سنين. فجأة دخت. بيقولو في مرض اسمه دوار البحر. حسيت كأني فقدت توازني. ما بعرف شو صار فيني! كنت لحالي في زاوية قدام السفينة مرتكي ع الدرابزين. ما حسيت إلا وأنا أقع من فوق. بتقول في حدا دفشني من ورا. وأنا عم بسقط تذكرت بنتي الصغيرة رشا. صباح اللي طلعت فيه من إزمير قالت لي يا بابا خدني معك. قلت لها لا بنتي خليك مع ماما وأخواتك إنتو راح تجو لعندي. قالت لي طيب اوعدني ترجع بسرعة. أخذتها في حضني وبكيت.
لما صرت بالمي وحسيت حالي أغرق تشهدت. وأنا عم أتشهد إجت صورتك قدام عيني. آخر شي شفتو كان وجهك. الغرق صعب يا بابا. صعب كتير. بس وجهك هو اللي سهَّل علي الموت بالغرق".
أنهي عاصم كلامه الحزين الهامس وسكت ينتظر تعليق أبيه. كان أبوه غارقاً في ذهوله لا يصدق ما يراه ولا ما يسمعه.

* * *

لم يكن لذهول أبو ليلى قاع يبلغه. ظل ينحدر وينحدر دون أن يفهم شيئاً. شعر بنفسه أخرس وأن لسانه يلتصق بحلقه الجاف، لم يكن ذلك رعباً بل كان شعوراً أكبر من الرعب لم يجد أبو ليلى اسماً يليق به. حاول أن يلتفت إلى الوراء فشعر برقبته متجمدة لا يستطع تحريكها. بقي يحدق في عيني ابنه الغريق عاصم الذي روى له قصة غرقه بحزن واختصار بينما ظل الباص يسير بنفس إيقاع السرعة التي بدأ يسير عليها قبل قليل. اشتدت ظلمة الخارج عما قبل. أما في داخل الباص فقد بقي الضوء الشحيح على حاله. لاحظ أبو ليلى بعد أن استفاق قليلاً من ذهوله أن ليس للباص أضواء أمامية كاشفة. بدا الباص مثل سمكة تنطلق مسرعة في قاع محيط عميق لا تهتدي إلا بغريزتها. سكون مطلق ولا شيء غير الظلمة الأزلية. لا شواخص في الطريق الذي لا تبدو معالمه الآن، لا أضواء تلوح في البعيد كعادة الباصات حين تنطلق من مدينة إلى أخرى عبر طرق تترادف القرى على جوانبها تشع أنوارها سلواناً للركاب، لا شيء غير السواد اللاهائي الرهيب.
شك أبو ليلى في وجوده. شك في وجود الباص وفي أفراد عائلته الذين ماتوا والذين صار يكتشف الآن موتهم باعترافهم هم. لا يمكن لأب أن يصدق موت ابنه فكيف سيصدقه حين يروي القصةَ الابنُ الميت بالذات؟ لا شك أنه كابوس ثقيل. كيف عادوا إلى الحياة؟ كيف مات عاصم في بحر إيجة ثم قام من موته وعاد إلى حلب وصعد الباص الأخضر معي؟ كيف وصلت نازلي التي قتلها القصف إلى هذا الباص الذي ما جاء إلا لينقل مجموعة من المسلحين وبعض المدنيين إثر اتفاق أبرم بين دولة راعية لهذا الفريق وأخرى لذاك؟ لم يحدث من قبل أن عاد أحد إلى الحياة إلا في الكتب المقدسة والأساطير القديمة. لا يعود الناس إلى الحياة إلا يوم الحشر، يوم الدينونة الكبرى حين ينفخ الملاك إسرافيل في صوره الهائل. هل داهمنا يوم الحشر دون أن ندري؟
نفض أبو ليلى رأسه مرة أو مرتين، أسبل جفنيه ثم رفعهما عدة مرات متتالية بسرعة ليقنع نفسه بأن ما يراه وهم وتهيؤات. رأى ابنَه عاصم يبتعد متثاقلاً بسترته البرتقالية المبللة ويتخذ مقعداً له بجانب أمه. لا. لا يمكن أن يكون ما أراه حقيقة. هذا أكثر من خيال. قال في نفسه وحاول أن ينهض لكنه شعر بشاب حليق الذقن يرتدي بدلة عسكرية مموهة يبتسم له واقفاً. لم يستغرق الأمر أكثر من ثانيتين حتى عرف أبو ليلى ابنه الشهيد عبد الناصر. إنه هو نفسه الذي لمحه قبل قليل في مقعد بآخر الباص يطالع كتاباً.
– كيف حالك يا أبي؟
قال عبد الناصر ثم جلس بجانب أبيه. لم يعانقه، لم يحتضنه كما فعل أخوه عاصم قبل دقائق. بل حدق من جديد في الكتاب الذي بين يديه: مغدوشة، قصة الحرب على المخيمات في لبنان. فتح على صفحة معينة وقال لأبيه الواجم المذهول:
– الشي اللي مكتوب هون صحيح مية بالمية. هاد ممدوح نوفل كتب الأحداث بدقة. أنا شاركت بالحرب في المخيمات الفلسطينية وبعرف شو صار. بس الحق عليهم.

– على مين يا عبد الناصر؟
سأل أبو ليلى مستغرباً أنه استقبل ابنه الشهيد بجفاء وبرود وأن ابنه قابل الجفاء بالجفاء. أقنع نفسه بأن ذلك قد يعود إلى طول العهد بغيابه ومرور سنين طويلة على استشهاده. رد عبد الناصر:
– ع الفلسطينية. شكلو فصائل وجيش ودولة ضمن دولة ببلد تاني مستقل وذو سيادة.
– يا إبني أما ما عم بفهم عليك. عن شو عم تحكي؟ اشرح لي بس.
– أنا عم بحكي عن الشي اللي شفتو بلبنان قبل ما استشهد.
– الله يخليك. هاد صار ماضي. تعا شوف اللي صاير ببلدك. الله وكيلك لهلأ ما بعرف أسامي الفصايل اللي تتقاتل ولا الدول اللي تقصف. سما بلدنا صار بدها شرطي مرور لتنظيم حركة الطيران الحربي.
– عن جد؟
– عن جد ونص. الشي اللي صار بلبنان بيتكرر عنا هون بشكل أبشع وأبشع.
– ما لي خبر.
ابتسم عبد الناصر. وضع كتاب ممدوح نوفل من يده ثم أردف:
– اللي بيموت بينقطع عن كل شي. بيرتاح بالمرة. بس يا ريتني متت موتة ربي بالبيت وبفرشتي ولا شفت هديك الموتة. هلأ الموتة نفسها ما كانت شي. ما حسيت فيها أصلاً. رصاصة طايشة صابتني لما دخلت حركة أمل مخيمي صبرا وشاتيلا.
– يا إبني أنت انقتلت برصاصة قناص فلسطيني مو برصاصة طايشة. صحح معلوماتك.
– شو هالحكي بابا؟
– هيك قال لي الضابط لما سلمني جثتك. راح تعرف أحسن منو؟
– بيجوز حكيو صح. بس متل ما قلت لك هاد مو مهم يا بابا. الشي اللي شفتو ببيروت أصعب من إني أوصفو. أنا صار لي عم بقرا هالكتاب ثلاث مرات. بس صدقني ما قادر ينقل واحد بالألف من الشي اللي صار. ما عم بحكي شي أصلاً. كنت ببيروت مع عساكر قطعتي العسكرية بالوحدات الخاصة. كنا في بناية عالية قريبة من برج البراجنة. بأواخر أيار بلش ضرب صبرا وشاتيلا. القصف كان شغال ليل نهار.
– يا إبني شو هالمعلومات؟ سامحني إذا قلتللك أنت مخربط. اللي دخل صبر وشاتيلا هنين الإسرائيلية والكتائب. هنين اللي عملو فيها مذبحة. كل الناس تعرف هالشي وحتى إسرائيل بذات نفسها اعترفت.
– إي صح بابا. بس هاي المجزرة قبل. صارت بسنة 1982. أنا بحكي عن ضرب مخيمات الفلسطينية بسنة 1985. نحن وحركة أمل واللواء السادس من الجيش اللبناني وحتى بعض الفصائل الفسطينية. المهم. حاصروا صبرا وشاتيلا وصارو يقصفو ويقصفو ويقصفو لحد ما تدمر المخيم ومات ناس كتير. كنا نشوف الراجمات والدوشكا ووصواريخ غراد والرشاشات عم تقصف ليل نهار. ومرة كنا أنا ورفقاتي ع البلكون عم نتفرج متل العادة. صار إطلاق نار عجيب ما شفت متلو بحياتي. أنا خفت بصراحة. خفت كتير وحاولت أروح بس رفقاتي قالو لي لا تخاف يا أبو عبود الضرب بعيد. كل يوم هيك لحتى تعودت. صرنا نشرب شاي وقهوة ومتة ع البلكون ونحن عم نتفرج ع الضرب. وبيوم من الأيام فجأة حسيت بشي ضرب راسي بكل قوة. شفت وجه أختي الصغيرة ليلى. شفتها عم تبتسم لي. بعدها خلاص. انتهى كل شي.
بعد أن انتهى عبد الناصر من سرد حكايته التي اختصرها قدر الإمكان. فتح الكتاب من جديد وقال غاضباً:
– شوف يا بابا. أنا متت من كيسي. متل كل هالناس اللي بيموتو من كيسهم. قريت كل الكتب اللي تحكي عن مرحلة حرب المخيمات في لبنان. حتى هالكتاب اللي كتبه واحد من قادة الفلسطينية قريت صفحاتو الأربعمية. بس ولا مرة شفت إسمي. ما حدا جايب سيرتي بنوب. الآلاف بيموتو بهيك حروب متل الحشرات. أنا اللي متت بأول طلعتي ما بنزكر ولا مرة؟ هاد عدل هاد؟
حزن والده. تذكر يوم ودعه في ثكنة هنانو قريباً من حي الشميصاتية في حلب خلال التحاقه بالجيش. غمره يومذاك شعور خليط من الحزن والفخر. قبل عينيه اللامعتين وقال له جملة واحدة كأنها حشرجة: دير بالك ع حالك يا إبني. تذكر أيضاً

يوم جاء جثمانه إلى الحي في سيارة جيب عسكرية.

* * *

استمر الباص الأخضر يجري بسرعته المعهودة يشق أمواج الظلمة الكثيفة دون أدنى صوت للمحرك. شعر أبو ليلى من جديد بآلام ذلك اليوم البعيد. نظر في عيني ابنه، تأمل تقاطيع وجهه فلم يجد أثراً للحياة لا في عينيه ولا في وجهه. رد بنبرة ميتة:

"هاي هي الحرب يا إبني. هي هيك من يوم ما الله خلق قابيل وهابيل. أنت تحكي عن حرب مخيمات. هديك الحرب راحت واللي ماتو فيها شبعو موت. اللي صاير عنا بالبلد أضعاف أضعاف هديك الحرب. البلد تدمرت يا إبني. البلد ما عادت بلد. البلد تحولت إلى مخيمات يسكنها نازحون من كل منطقة. وهاي تهجر أبوك وأمك ماتت بالقصف وأخوك غرق بالبحر وأختك جنت. كوابيس ورا كوابيس يا إبني وصدقني ما راح تنتهي هالكوابيس. فكرك حدا راح يحكي عن مأساتنا؟ فكرك مأساتنا قليلة؟ أقل من مأساة الفسطينية اللي تهجرو وتعرضو لمجازر وين ما راحو؟ بتقول ما حدا كتب عنك. ليش شو بينفع إذا حكو أو كتبو عنا؟ ها؟ قول لي شو بينفع؟ شو نفع الفلسطينية اللي انقتلو بحرب المخيمات هالكتاب اللي أنت شايلو بين إيديك؟ ما راح ينفعنا مليون كتاب عن مأساتنا. ما راح يفيدنا مليون فيلم ينشروه عن حياتنا اللي عشناها تحت رحمة قصف الطيران وسيطرة فصائل، ما منعرف قرعة أبوهون منين، على حاراتنا. كل اللي عم نسمعو بالأخبار: مقتل عشرة مدنيين في قصف بالبراميل على حي السكري بحلب، مقتل عشرين مدنياً في انفجار سيارة مفخخة بحي الزهراء في حمص. مقتل ما بعرف كم واحد بالمنطقة الفلانية. هنا أرقام وهناك أرقام. أرقام وبس. بالحرب بيصير الإنسان حتى أتفه حتى من مجرد رقم. بيصير مثلاً جثة متحللة مجهولة الهوية كمان. بنت أختك ليلى مثلاً، حبيبة قلبي ميسون استشهدت خلال غارة هليكوبتر. شو قالو عنها؟ مقتل طفلة. طفلة وبس. لا اسم ولا كنية ولا عمر ولا صورة. شو بيفرق هالحكي عن كلمة مقتل نملة مثلاً؟ آخ يا إبني عبد الناصر آخ. يا ريتني أنا كمان متت متلك بعز شبابي ولا تزوجت ولا خلفت ولا شفت هالحرب. يا ريتني ما خلقت أصلاً. لك اللي بيعيش بالحرب بيموت ألف موتة يا إبني".

نهض عبد الناصر. لم تتغير قسمات وجهه. أخذ الكتاب معه ومضى إلى مقعده بآخر الباص. شيعه أبوه بنظرة حائرة. استغرب تناوب أفراد عائلته الراحلين على القدوم والجلوس بجانبه وسرد حكاياتهم باختصار. يأتون فقط ليسردوا لحظات موتهم كأنما يريدون أن يؤكدوا له أنهم ماتوا فعلاً وباقون في ذاكرته فقط. كأنهم يظنون أن والدهم، هذا الرجل السبعيني الهارب من حيه المدمر بحلب لم يصدق موتهم إلى الآن. شك في أنهم متواطئون على ذلك التناوب. استغرب عدم قدرته على النهوض ومغادرة المقعد إلى حيث أبناؤه وابنته وزوجته وأولادهما بدل أن يأتوا هم إليه. أحس بجسده قطعة حديد يشدها مغناطيس المقعد إليه بقوة هائلة.

* * *

لم يجذب أبو ليلى من قاع تلك الأفكار المتماوجة سوى رجة عظيمة جعلته يشعر كأن الباص اصطدم بحجر كبير أو عائق ما في الطريق. اهتز الباص كله، ارتفع قليلاً في الهواء وسرعان ما استقر من جديد في مساره ومضى بسرعته السابقة دون أن يسمع أبو ليلى للمحرك أي ضجيج أو يتغير مشهد السواد الثقيل خارجاً. لفت انتباهه أن أحداً من أفراد عائلته الجالسين في الوراء لم يصرخ. لم تصرخ لا زوجته ولا ابنته ليلى. شك في أمره وأمرهم. هل ارتج الباص حقيقة أم أنه تخيل ذلك؟ كيف لم يهتم أحد بأمر هذه الرَجَّة؟ ربما لأنهم أموات؟ لكن هناك ابنه العازف علي. ما زال يعزف لحن أغنية وراء أخرى. لم يوقف عزفَه حتى. أية حوادثَ هذه يا رب؟.

نظر إلى عائلته التي توزعت على المقاعد الصفراء في الخلف. تحسر على أنه لا يستطيع الذهاب إليهم. بقي أسير مقعده الذي أصبح زنزانة صفراء. بشعر قدميه غائصتين في وحل كثيف وبركبتيه مشلولتين. كان يريد أن يذهب إلى أحفاده، يضمهم إليه، يلاعبهم، يمازح ميسون حفيدته الأثيرة لديه ويدغدغ خاصرتها لتضحك وتحاول الهرب من بين يديه كما كان يفعل كل مساء حين كانت ميسون على قيد الحياة. يا إلهي. إنها ليست سوى أمتار قليلة فلماذا لا يمكنني الوصول إليهم. كيف يأتون إلي ولا أقدر أنا على ذلك؟ أراد أن يرفع صوته بالنداء، أن يصرخ ويطلب حضورهم دفعة واحدة لكنه أحس

بشفتيه قطعتي فحم وبحلقه برية من رماد.
أحس بدبيب أقدام في الممر الضيق بين المقاعد الصفراء قطع سلسلة أفكاره. تقدم إليه شاب من نهاية الباص مبتسماً. شاب ملتح وسيم يحمل في يديه خوذة بيضاء. ابتسم حين اقترب من أبو ليلى. كانت ابتسامته دافئةً حنونَ جعلته ينسى أمر الرجة التي شعر بها لتوه. بهدوء جلس الشاب بجانبه وقال:
– كيف حالك يا أبي؟
– من أنت؟
– ولو يا بابا! ما عرفتني؟ أنا عمر.
– عمر؟ على أساس أنت جيش حر؟ سمعنا كتير إشاعات عنك يا إبني.
قال أبوه دون أن يبادر إلى معانقته. ابتسم عمر. طأطأ رأسه قليلاً كأنه يفكر. ظل يلعب في تلك الأثناء بالخوذة البيضاء بين يديه. أخيراً رفع رأسه، نظر والده في عينيه المبتلتين بالدمع فلم ينتظر أن يتكلم بل سأله:
– خير يا إبني؟ شايفك مو على بعضك. ما عاد عرفنا عنك شي من يوم ما التحقت بالجيش الحر.
وضع عمر الخوذة جانباً. أمسك بمسند المقعد ثم اعتدل في جلسته وبدأ يسرد لأبيه قصته:
"أي حر أي بطيخ يا أبي؟ من زمان ما عاد في شي اسمو جيش حر. ما في هلأ غير فصائل ما بيعرف الواحد مين بعتها ومنين إجت وليش عم تتقاتل ولا حتى مين عم بتقاتل. معقول يقولو عن هاد اللي سيطر ع الليرامون والمعامل وعَّفش نص حلب إنو قائد جيش حر؟ أقسم بالله يا أبي هاد نهب كل المعامل بالمنطقة. مو كنت أنا معهم؟ أنا شاهد على كل الفظائع اللي ارتكبوها. ما خلو حدا ما سلبوه مصرياتو. وهداك التاني الحية؟ هداك حرامي كبير يا أبي. قام بتفكيك مئات المعامل وباعها في تركيا. مجرم وأمير حرب. هيك بيسمو اللي بيستفيدو من الحروب لتعزيز مركزهم المالي: أمراء الحرب. بس هدول كانو عبيد وعينهم بس ع المال. ضحو بخيرة الشباب الوطنيين مشان المال والشهرة. بالأصل بيكونو ناس وضيعين ما لهم أصل. لكن بيكبرو بالحروب وبيصير لهم نفوذ وكلمة وبيشاركو بالمؤتمرات على أساس جزء من المعارضة. الله وكيلك يا أبي كنا نرمي عشوائي على مناطق سيطرة النظام. هيك صرنا نسمي الحارات غربي حلب. لما كنا نسمع عن مقتل مدنيين كان بعض المقاتلين يشمتو فيهم ويقولو: "يستاهلو. ليش ما بيطلعو مظاهرات ضد النظام؟"
هاد هو منطق الحرب يا أبي. الإنسان يتحول إلى كتلة من الكراهية والحقد والتوحش. مين كان يصدق أن طالب الأدب الفرنسي عمر العجيلي اللي كان يتجول في حارات حلب دليل سياحي للأجانب ويفرجيهم جمال حلب القديمة وبيوتها الأثرية والقلعة والأسواق والخانات والأبواب، يشيل السلاح ويقاتل ويصير شاهد عيان على خراب هالمعالم اللي كان يفتخر فيها قدام الأجانب؟ مو بس هيك وينضم للنصرة كمان؟"
ذهل الأب. تنقل ببصره بين الخوذة البيضاء ووجه ابنه الجامد. تذكر حيويته وعشقه للحياة وتمرده وعنفوانه خلال أيام الجامعة. لم يكن يعود إلى البيت إلا نادراً وإن عاد ففي ساعة متأخرة من الليل. يطالع الكتب ويناقش أمور الحياة مع إخوته ويؤكد لهم أن الحياة ليست عقيدة وجهاداً كما يدعي أحمد شوقي بل هي فرص يفوز بها الجسور المغامر. لم يشأ أن يتزوج بالرغم من إلحاح والديه عليه بل فضل أن يعيش حر المعصمين من قيود العائلة كما وصف الزواج. تعرف على صديقات كثيرات، سائحات جميلات من فرنسا وغيرها، طالبات جامعيات وفتيات التقى بهن صدفة خلال سهراته الكثيرة، معلمات من الثانوية التي قام فيها بتدريس اللغة الفرنسية بعد حصوله على ماجستير في الآداب الفرنسية عام 2000. لم يشأ أن يلتحق بالجيش ودفع أموالاً كثيراً لشعبة التجنيد ليتم تأجيله سنة بعد أخرى إلى أن تأزم عاطفياً بعد عشر سنوات من التدريس. كان قد بلغ الأربعين من العمر واستسلم أخيراً لفكرة الزواج. أحب زميلة له في سلك التدريس تصغره بخمسة عشر عاماً. لكن زميلته المدرسة لم تستجب لعواطفه ولم تبادله الحب. ظل يلاحقها شهوراً دون أن يلين قلبها. لم يكن قد جرب الحب في حياته، كانت علاقاته مع النساء عابرة خالية من العاطفة وكان يضحك على من يشكو له آلام الحب ولوعات الفراق إلى أن ذاقها بنفسه. أصيب بأزمة نفسية حادة وصار يتناول الأقراص المهدئة دون أن ينسى أمر الحب إلى أن قرر أخيراً أن يعالج نفسه بالالتحاق بالخدمة العسكرية شأن الكثيرين. بعد أن التحق بالجيش بأشهر شبت النار في البلاد

العربية انطلاقاً من تونس إلى أن أصابت شراراتها سوريا أيضاً. كثرت الانشقاقات في الجيش العربي السوري وحدثت صدامات بين المتظاهرين والشرطة والجيش. قتل المتظاهرون السلميون بدم بارد فاقتنع هو أيضاً بفكرة الانشقاق. وحين وصل إلى حلب وجدها مقسمة بين فصائل مسلحة شتى تنتمي كلها للجيش الحر فاحتمى بإحدى الفصائل وصار يقاتل في صفوفها. شاهد تبدلات الواقع الحلبي في ظل الفصائل المتقاتلة مثل أحفاد المرسلين وغرباء الشام ولواء شهداء بدر وغير ذلك من الفصائل التي تسترت بشعارات دينية وتجلببت بالتاريخ. عاين عمر تمدد داعش في أحياء حلب أواخر عام 2013 حين رفع التنظيم شعار محاربة المفسدين وانطلق من حي الإنذارات ليلاحق أولاً فصيل أحفاد المرسلين ويشتت شمله ويسيطر على مقراته ويغنم مخازن أسلحته. اندفع داعش بعد ذلك باتجاه حي الصاخور الشعبي ليقود حملة دموية ضد فصيل غرباء الشام ويصفي قادته في وضح النهار. في فترة قياسية وصل داعش إلى أحياء كثيرة في شرق حلب: بستان الباشا، الهلك، بعيدين، الحيدرية واتخذ بعض المقرات في أحياء أخرى دون أن يسيطر عليها تماماً مثل حي الأنصاري والشيخ نجار والكلاسة وصلاح الدين والمشهد. اتخذ التنظيم من مستشفى الأطفال في حي قاضي عسكر مقراً رئيسياً له وباتت حلب تحت وطأة النصرة وداعش ولواء شهداء بدر وغيرها من الفصائل والكتائب والجماعات التي تبرقعت بشعار ‘‘والله ما خرجنا إلا لنصرة هذا الدين" بعكش شعار ‘‘الكرامة" الذي رفعه السوريون في مظاهراتهم الصاخبة. شنت هذه الفصائل حيث أحكمت قبضتها حملات اعتقال وتصفية بحق كثير من ناشطي المجتمع المدني وأبطال الحراك السلمي ومنظمي المظاهرات حتى تم شل قدراتهم تماماً ودانت حلب الشرقية برمتها لتلك الفصائل. ومع أن حكم داعش في أحياء حلب انتهى بعد أشهر بعد قتال عنيف بينه وبين فصائل كثيرة اتحدت ضده سمت نفسها جيش المجاهدين إلا أنه بقي مهيمناً على كامل ريفها الشرقي يزرع الرعب ويحصد البقاء والتمدد.

في خضم تلك الفسيفساء السوداء وجد عمر نفسه بين براثن جبهة النصرة. شاهد بأم عينيه ما ارتكبته الجبهة بحق المدنيين وبحق كثير من أسرى جيش الحكومة من فظائع. خاض حرباً لم يكن يتخيلها. كانت حرباً قاسية. حرباً تضع العقل في الكف بالتعبير السوري الدارج. أصبح الناس يحملون عقولهم في أكفهم المرتعشة حائرين لا يفهمون ماذا يجري. لم تكن أمامه أية فرصة في التارجع. لقد انشق عن الجيش وهرب بسلاحه. مصيره الإعدام إن وقع بيد قوات النظام بسبب الفرار من الجيش وحالة الحرب التي يعيشها البلد. اضطر للبقاء في صفوف التنظيم المتشدد ليصبح شاهد عيان على جرائم مرعبة.

‘‘ما بعرف يا أبي كيف صرت من مقاتلي النصرة! على أساس كنا فصائل ثورية من الجيش الحر ومهمتنا حماية المتظاهرين من بطش النظام. والله العظيم ما بعرف كيف صارت عندي لحية وصرت أطول شعري وأحكي فصحى متل شخصيات المسلسلات التاريخية. كأن الموضوع عدوى صابتني وصابت كتيرين متلي. بالحرب ما في خيارات كافية قدام الواحد. ما في حلول وسطى، ما فيك تقول أنا ما دخلني ولا علاقة لي لا بهذا الطرف ولا بذاك. ولا طرف بيقبل منك الحياد. يا أبيض يا أسود، بالحروب ما في رمادي غير بقايا البيوت المحترقة. والتحول بالحرب من خندق لخندق ومن تحت هالمظلة لتحت هديك شيء غريب أنا ما فهمت آلياته. بس اللي بعرفو وشفتو إنو على غفلة منا تسلحت الثورة ولبست أفغاني بدون ما نعرف كيف وإيمتى. صار للكلاشينكوف لحية طويلة وشارب محفوف وصارت الناس تندبح متل خرفان العيد مع التكبيرات. الثورة اللي كانت حلم تحولت لحرب والحرب صارت قذرة جداً. الكرامة والحرية والشعارات اللي قامت الناس مشانها تم دوسها بأقدام الكل. أنا شفت كيف قتل رفقاتي أسرى النظام. كانو يسألو الأسير شو طائفتك وهنين عازمين على قتله سلفاً. تصور يا أبي! سؤال واحد وحيد الجواب عليه بيقرر مصير الأسير. وطائفتو طبعاً بتصير جريمة يعاقب عليها بالنحر أو طلقة في الراس بدون ما يعرف حدا إذا بريء ولا مجرم. قتل قتل قتل. بكل مكان صار في دماء وجثث وأشلاء وخراب وقصف ورعب وجرائم وتعذيب وتصفيات بالسجون. كل الفصائل المسلحة صارت تدير سجون وتصفي مين يعارضها. صارت الشغلة بدها خرائط وبيانات لحتى تعرف مين يسيطر وين. صرت أشوف كوابيس كل ليلة. أكبر جريمة إنو هدول تحصنو بالحارات وسط المدنيين. ينصبو مدافع ويعملو متاريس بحارات فيها أطفال ونسوان وعجائز. ما كان حدا يسترجي يقول بعدو عن الحارة. النظام ما كان بيرحم. بدو يضرب المعارضة المسلحة حتى لو كانت بنص الكعبة. طيب مرة مرتين تلاتة! ما حلون يفهمو ويبعدو؟ ما كان حدا يسمع شكوى المدنيين. طيب ما عندك مضاد طيران ولا سلاح بيحيد الطيران

الحرب ليش تجي تعمل حالك بطل وقبضاي بالحارات الفقيرة؟ أقسم بالله يا أبي كان بدها ثورة ضد هالناس اللي دمرو البلد بدعوى إسقاط النظام ومحاربته.
ما عدت أتحمل. قررت أترك السلاح. تمارضت. ترجيت الأمير يعفيني من مهمة حمل السلاح بحجة مرض في الكتف يمنعني من حمل البدقية. اتفقت مع دكتور كتب لي تقرير إنو معي خلع بالكتف وتمزق عضلي. اقتنع الأمير وكتب لي ورقة إعفاء من المهمات القتالية. لحسن حظي قتل هالأمير في قصف مروحية. صرت بالدفاع المدني في إدلب. ارتحت كتير لما انحصرت مهمتي في انتشال الناس من تحت الأنقاض. بعتوني إلى بلدة خان شيخون كونها الأكثر تعرضاً للقصف. كلما كانت الطيارة تضرب في حارة من الحارات كنا نروح فوراً. نعرف سلفاً إنو في ناس مدفونين تحت الركام وأسياخ الإسمنت المسلح. أطفال، نسوان ومقاتلين كنا نشيلهم بوسائلنا البسيطة من تحت كتل البيتون لحتى ضربتنا طيارة سوخوي ونحن عم نسعف الناس في إحدى البنايات القريبة من جامع علي بن أبي طالب".
كان أبو ليلى يحدق في عيني عمر الجافتين بدهشة وحزن ويصغي من ناحية إلى قصة تحولاته العجيبة ومن ناحية أخرى يصغي إلى نقر المطر الذي اشتد كأنه يسرد هو الآخر قصة الظلام والسكون خارجاً. أخرست حكاياتُ موت الأبناء الأبَ الذاهلَ ولم يجد بداً من الاستسلام لذلك الكابوس المرعب وسماع القصص حتى نهاياتها المفجعة.
تنهد عمر. لم يظهر على وجهه أية تعابير جديدة. بقيت ملامحه قاسية جامدة مع مسحة من الخوف والحزن فيما بقيت نظراته حائرة تائهة مثل نظرات تمثال يحدق في اللاشيء. سكت لثوان قليلة بعد تنهيدته كأنه يرتب فصول قصته ثم واصل بالإيقاع ذاته:
‘‘كنت ماسك بإيد طفل. إيد صغيرة ناعمة ظهرت من تحت الركام. جسم الطفل كان مدفون ما شفت منو شي. مع ذلك فرحت كتير. قلت بيجوز هالطفل بعدو عايش. صرت أشيل التراب والحجارة الصغيرة على مهلي وكلي أمل أن يطلع الطفل على قيد الحياة. ما عرفت إذا صبي أو بنت بس كانت الإيد طرية ودافية. وفجأة سمعنا صوت طيارة. صاحو رفقاتي: روسية، روسية، طيارة روسية. كانت طيارة روسية بالفعل. طيارة سوخوي. ضربت صاروخ على نفس المكان اللي انضرب قبل ربع ساعة. سمعت صوت رهيب. بعدها حسيت كأني أغوص إلى أعماق الأرض. الضربة كانت قوية كتير. سقط فوقي عمود إسمنت. العمود هشم عظامي. سمعت طقطقتها. ضليت مع ذلك ماسك إيد الطفل. تأكدت من إنو أنا عم موت. الموت مع الألم الشديد أهون يا أبي. أنا فقدت الأمل بالنجاة وعرفت إنو خلاص! هاي هي لحظاتي الأخيرة. بس ما تركت إيد الطفل. الشي اللي سهل علي الموت أكتر هو إيد هداك الطفل. بتقول كإنو ملاك الرحمة وجاي يخفف عني عذاب الموت، ينتشلني من تحت الأنقاض ومو أنا اللي بحاول أنتشلو".

* * *

غرق أبو ليلى في تفاصيل سرد ابنه الجارح. أحس بدوار خفيف. أمسك صدغيه بأصبعي الإبهام والوسطى من اليد اليسرى ثم التفت يميناً وألصق جبينه بالزجاج البارد يحدق إلى الظلام المترامي. فجأة لمعت أضواء كاشفة من بعيد. أحس بقليل من الأمل. إذاً ثمة حياة وأضواء في الخارج ومسافات يقطعها الباص وزمن يمضي كالعادة. الأمر طبيعي إذاً. قال أبو ليلى في نفسه وحين دقق في الأضواء التي لاحت من بعيد اكتشف أنها أضواء انفجارات ومدافع تطلق حممها وليست أضواء تبعثها قرى حالمة بالأمان. عرف من بعض الأضواء أنها طلقات خطاط كما يسمونها وهي طلقات مضيئة تترك وهجاً أحمر اللون ليتعرف المتحاربون على الأهداف المعادية ويطلقوا النار فيما بعد عليها. من يطلق على من؟ وهل يهم؟ إنها نيران قاتلة وكفى. الأمر طبيعي إذاً بالرغم من من تلك النيران. الأمر طبيعي تماماً. غير الطبيعي ألا تكون هناك نيران وقصف متبادل.
‘‘البلد تعودت ع الخراب يا عبود والناس تعودو ع القصف وأخبار الموت ومشاهد الدم والجثث المرمية بالشوارع. أفضل شي في الحرب هو إنو الموت يصير أمر أكثر من عادي. الإنسان يتعود ع المصايب إذا دامت. قال أبو ليلى لنفسه وهو يواصل التحديق في أضواء القصف التي منحت الظلام معنى الوجود في تلك اللحظات.
حين مضت ثوان قليلة على تلك الحال التفت أبو ليلى إلى يساره فوجد المقعد بجانبه فارغاً مرة أخرى. نظر حائراً إلى الوراء. كان ابنه حاملاً خوذته البيضاء مطأطئاً رأسه يسير بخطى مترددة إلى حيث كان يجلس قبل قليل.

ما زالت ابنته ليلى نائمة وميسون لا تزال في حضنها تلمع جديلتها في الأضواء الخافتة المجهولة. نظر إليهما بشوق وحنان. تمنى أن تستيقظ ميسون وتركض إليه. كان هو مثبتاً إلى مقعده بمسامير لامرئية من الرعب والحيرة. شعر بأنه يتصبب عرقاً فمسح عنقه وجبينه بكم دشداشته ثم عاد ونظر إلى ميسون. دهش حين رأى أباها الدكتور فرهاد يقوم من أحد المقاعد ويأتي ليقف بجانب ميسون. بقي هناك يلاعب شعرها حتى أيقظها. ابتسمت ميسون في وجه أبيها ونزلت من حضن أمها النائمة. انحنى أبوها وقبلها ثم أمسك بيدها وتقدما إلى الأمام. في السكون الرهيب سمع أبو ليلى وقع الخطوات الصغيرة لحفيدته. ميزها عن خطوات أبيها. اقتربت ميسون أكثر. شاهدها تبتسم ابتسامة حزينة. أسرعت ميسون لما رأت جدها وجاءت لترتمي في حضنه. كانت باردة. باردة كما لو أنها بقيت فجراً في العراء لساعات. لف أبو ليلى ذراعيه على حفيدته وصار يقبلها ثم وضعها في حضنه فوضعت رأسها على صدره ولم تقل شيئاً حتى غفت بعد لحيظات.

في تلك الأثناء كان الدكتور فرهاد يراقب مشهد لقاء الحفيدة بالجد. ابتسم ابتسامة محطمة في وجه حميه أبو ليلى. ولما أدرك أن ابنته ميسون نامت في حضنه جلس بجانبه وسلم بهدوء:

– مرحبا عمي. كيفك؟

– دكتور؟ هاد أنت؟ وين كنت يا إبني؟ نحن فقدنا الأمل برجوعك. لو تعرف شو صار بعائلتك بعد غيابك.

– بعرف عمي بعرف. ليلى حكت لي كل شي.

– وأنت؟ شو صار لك؟ ليش ما كان فيك تتصل فينا؟ ع الأقل كنت تطمن ليلى يا دكتور. لو تعرف شو صار فيها من بعدك!

دار بين أبو ليلى وصهره الدكتور فرهاد حديث هامس كأنهما شبحان. لم يجد أبو ليلى في عيني الدكتور فرهاد أي أثر لبريق الحياة. بدا وجهه أبيض خالياً من الدم غطته لحية سوداء كثيفة طويلة.

– لقد ذبحوني يا عمي. ذبحوني كما تذبح الخراف صبيحة العيد.

– مين؟

– عناصر الدولة الإسلامية.

– ليش ووين؟ مو بايعتهم؟ ليش ليذبحوك؟

– لو شئت أن تسمعني يا عم لحكيت لك قصتي كاملة.

– هاتْ احكي لي.

ألقى الدكتور فرهاد نظرة على ابنته الغافية في حضن جدها، مسح على شعرها بحنان وقال بعد أن صار يحدق في اللاشيء:

"بعد أن جاءت دورية من الحسبة إلى العيادة واعتقلوني. أخذوني مخفوراً إلى أمير التنظيم. حقق معي الأمير لمدة ساعة ثم قال لي:

"أنت داويت كثيراً من أفراد صحوات من يسمون أنفسهم بالجيش الحر, وهذا بحد ذاته جريمة تستوجب القصاص والقتل. لكن الأمير عفى عنك. ربما لا تعرف أننا سنذهب إلى عين الإسلام لنحررها من رجس الأكراد الملاحدة. سنحتاجك في أمور الجراحة وستكون معنا في غزوة كوباني التي يعنون بها عين الإسلام".

لم يكن أمامي أي خيار سوى الخضوع لمشيئة التنظيم وإلا فالذبح ينتظرني. فأنا بايعت الخليفة ولا يمكن لي حل البيعة ولا رفض أوامر ولاة الخليفة من أولي الأمر أبداً. قلت وأنا أرتجف: سمعاً وطاعة. أخذوني أولاً إلى الرقة أشرف على عمليات جراحية لجرحى عناصرهم. وحين قامت الحرب في كوباني مشيت في ركابهم حتى دخلنا المدينة وكانت خالية من السكان. كانت مهمتي هي الإشراف على إسعاف الجرحى وخياطة جراحهم وكانوا بالعشرات. رأيت من فظائع عناصر التنظيم ما يشيب لهوله الولدان حتى صرت نهباً لكوابيس فظيعة. عشت أياماً قاسية في كوباني، شاهدت القصف والقنص الودمار الرهيب الذي طال أبنية المدينة الخالية.

فكرت في طريقة للهرب فلم أجدها. ثم جاء الفرج حين سحبني التنظيم من كوباني لما اشتدت عليهم وطأة القصف الأمريكي وأعادوني إلى الرقة ومنها إلى دير الزور فالموصل.

في الموصل رأيت فظائع أكبر مما رأيتها في كوباني.
كنا نعمل في ديوان الصحة مركز ولاية نينوى كما سمى عناصر الدولة الإسلامية مستشفى الشفاء الواقع في الشمال الغربي على الجانب الأيسر من نهر دجلة. في ذلك المجمع الطبي عشت الرعب الحقيقي. امتلأت ثلاجات المستشفى بجثث الجنود العراقيين والمدنيين مسيحيين وإيزيديين وشيعة وصحوات كما سموهم وغيرهم كثير. كان علي أن أوقع شهادات الوفاة لمن يقتلهم عناصر التنظيم داخل المستشفى ويرميهم فيما بعد في مقبرة الحَفْسَة. كذلك طلبوا مني أن أخيط أغشية بكارة السبايا الإيزيديات الصغيرات اللواتي كان عناصر التنظيم يستمتعون بهن ثم يعرضونهن للبيع بأثمان كبيرة باعتبارهن أبكاراً. بل إنني أشرفت على إجهاض العشرات من السبايا الإيزيديات نزولاً عند رغبة بعض الأمراء من تلعفر والموصل. لم أعد أتحمل ذلك. كنت أنظر في عيون الفتيات المرعوبات فأنهار من الداخل. كن يستنجدن بي، يستغثن ويبكين فأزداد انهياراً. صرت هشاً يا عمي. هشاً مثل نتفة ثلج. لكنني قررت في النهاية، وبالرغم من هشاشتي المفرطة أن أتمرد مهما يكون الثمن. قررت أن أذوب تماماً مثل نتفة ثلج تسقط على جمرة.
كان ذلك مساء حين جاء أمين الصحة أبو صالح وطلب مني أن أشرف على إجهاض سبية من سنجار قال إنها محظية الخليفة البغدادي. قلت له: إن ما تفعلونه يخالف الشرع وهو حرام ومنافٍ لكل القيم والأعراف. احتد أبو صالح وصاح في وجهي: ومن أنت حتى تعلمنا أصول ديننا وعقيدتنا؟ ألأنها تتكلم الكردية مثلك أشفقت عليها؟ أنا أقول لك إنها محظية مولانا الخليفة أبي بكر البغدادي الذي بايعه المسلمون وبايعته أنت أيضاً على السمع والطاعة في المنشط والمكره. قلت له: أولاً أشفقت عليها لأنها امرأة لا حول لها ولا قوة ولأن مولانا الخليفة، إن صحَّ ما تقول، يرتكب بذلك جريمة بحقها وبحق الجنين الموجود في بطنها ولذلك أنا في حِل من بيعته. لقد بايعته على طاعته ما أطاع الله، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. وإجهاض الجنين وسبي امرأة متزوجة من المعاصي التي يهتز لها عرش الرحمن. صاح أبو صالح مثل ذئب: الجنين ثمرة نكاح زوج السبية الكافر أيها الكردي الملحد ومولانا الخليفة أمر بذلك. إنك ترتكب بنكث البيعة التي في عنقك كبيرةً من الكبائر وتعرف جزاء مرتكب الكبيرة. وقبل أن ينتهي من جملته لكمني بأقصى ما عنده من قوة على وجهي. سقطت مغشياً عليَّ. لم يعدني إلى وعيي سوى برودة القيود في معصمي.
حين فتحت عيني لم أجد أبو صالح بل رأيت رجلاً بلحية سوداء كثة وعينين مكحولتين جالساً قبالتي على كرسي من الجلد، حين رآني أفتح عيني قال بلهجة عراقية واضحة: أنا أبو الحكم القاضي الشرعي في الموصل. سمعت أنك حللت بيعتك لأمير المؤمنين. قلت: نعم، فعلت ذلك لأنني رأيت مخالفة الشرع واضحة. منذ اليوم الأول لعملي هنا رأيتكم تخالفون الشرع، تجهضون السبايا الحوامل وتقتلون الناس بغير ذنب ولا محاكمات. حتى أنكم تمنعونني من أن أطمئن أهل بيتي عني وقد غبت عنهم أكثر من سنة لا يعرفون أين أنا. قال القاضي أبو بلال: عليك أن تلتزم بنص حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل "من رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر، فإنه ليس أحدٌ يفارق الجماعة شبرًا فيموت إلا مات ميتة الجاهلية". إنك طبيب جراح وتتمتع بثقافة دينية لا بأس بها كما سمعت، عليك بالصبر يا أخا الإسلام. رددت عليه بلامبالاة: صبرت كثيراً ولم أعد أطيق. أنا في حل من بيعة الخليفة.
تجادلنا كثيراً، حاول أن يقنعني بالعودة عن كلامي لأنقذ رقبتي من حد السيف لكنني بقيت مصراً على رأيي. فنهض وقال بازدراء: أنت كافر إذاً وتحارب الله ورسوله. جزاؤك الموت.
لم أعلق على التهمة المرتجلة. فرحت لأنهم سيقتلونني وأتخلص من العذاب الذي أقاسيه منذ شهور عديدة. فرحت لأنني لن أعاني في قادم الأيام ما عانيته من نظرات الفتيات البريئات والأمهات الحائرات والأطفال المرعوبين. كنت أموت كل يوم وفقدت الأمل برجوعي حياً إلى أهلي. وأصلاً لو لم يقتلونني لأقدمت على الانتحار. بقيت صامتاً فقال القاضي الشرعي أبو بلال بسخرية: يبدو أنك سعيد بهذه التهمة التي ستقطع رقبتك. ألا تريد أن تنكرها؟ نظرت إلى عينيه متحدياً وقلت: لا أنكرها وعاقبوني بمقتضى الشرع. استغرب الرجل اعترافي ولامبالاتي. نادى على عنصرين مسلحين كانا بباب الغرفة وقال لهما آمراً: أحضرا أبا حفص الليبي ثم خذا هذا الطبيب الكافر إلى حجرة التشريح ليتم تنفيذ حكم الله به.
حضر أبو حفص الليبي يحمل سكيناً طويلة كالسيف. كان رجلاً مفتول العضلات قوي البنية ضخم الجثة شديد السمرة

أجعد الشعر. رمقني بغضب فلم آبه به. أنزلني العنصران عشرين درجة إلى حجرة التشريح التي اكتشفت أنها ليست سوى قبو من أقبية المستشفى. سرعان ما تبعنا الرجل العملاق. كان القبو عارياً إلا من حفرة للصرف الصحي وحنفية "صنبور" ماء ومصطبة صغيرة وعدة سواطير معلقة إلى الجدار الذي زينته بقع من الدم. عرفت أن ساعتي دنت وأنهم سيذبحونني في هذا المسلخ البشري بلا شك. لم أشأ أن أقاوم بل التزمت الهدوء والصمت. تقدم الجلاد مني. قبض على شعري بعنف فهمست بكلمة الشهادة. ارتسم أمامي وجه ميسون الصغير ووجها كاميران وآلان. تراءت لي ليلى حزينة تذرف الدموع، في تلك اللحظة بالضبط سمعت تكبيرات الرجال الثلاثة ثم شعرت بحد السيف يخز عنقي. آلمني ذلك، استغرق الألم الشديد ثوانٍ قليلة ورأيت الدم ينفر من حبل الوتين المقطوع في عنقي ثم لم أعد أشعر بشيء".

* * *

ما إن انتهى الدكتور فرهاد من سرد قصة اختطافه وعمله مع داعش طبيباً جراحاً في مدن خلافة الدم إلى ساعة نحره في قبو من أقبية مستشفى السلام في الموصل حتى سمع أبو ليلى ما يشبه نشيج المزاريب في أذنيه.

أزعجه ذلك النشيج المفاجئ. أغمض عينيه فتصور نفور الدم من أوداج صهره الطبيب لحظة نحروه. دام النشيج حوالي الدقيقة بقي فيها أبو ليلى غامضاً عينيه يعتصر قلبه ألماً. ولما انتهى النشيج فتح عينيه ليرى صهره يمشي ببطء صوب مقعده في مؤخرة الباص حيث كان علي ما يزال يعزف على البزق مقطوعاته الكردية الحزينة الهادئة.

انتبه أبو ليلى إلى أنه يحمل في حضنه حفيدته الصغيرة ميسون. كانت غافية تضع رأسها على كتفه، خفيفة كفراشة، لا أثر للحرارة في جسمها ولا للنبض في قلبها الصغير.

– هي ميتة.

قال أبو ليلى لنفسه ثم تكلم بصوت مسموع:

– شو ها الامتحان يا رب؟ أنا تعبت. تعبت كتير. ما عاد فيني أسمع قصص الموت والقتل. ما بدي أسمع شي.

نظر في وجه حفيدته النائمة، كانت شاحبة رغم الابتسامة المزروعة كبرعمة على ثغرها الصغير، قبلها من جبينها فاستيقظت وتركت حضن جدها:

– بدي روح لعند بابا.

قالت بحزن يشوبه دلع الفتيات الصغيرات.

– طيب ما بدك تحكي لي قصتك؟

– قصة شو جدو؟

– قصة موتك؟

– بعدين بحكيها جدو. بدي روح لعند بابا.

قالت ميسون وركضت نحو أبيها فتراقصت جديلتاها الصغيرتان ذات اليمين وذات الشمال بإيقاع بهيج.

بقي العجوز السبعيني أبو ليلى حائراً في أمر ما يراه مثل زورق يدور حول نفسه في بحيرة مائجة، أراد أن يكذب عينيه ويقنع نفسه بأنه يرى حلماً أو كابوساً. "لكنهم حقيقيون" قال لنفسه ونظر مرة أخرى إلى المقاعد الخلفية حيث سمع وشوشات زوجته وأبنائه وبنته وصهره وأحفاده يختلط بها العزف الخافت. لم يعد يراهم جيداً. حال بينه وبينهم ما يشبه ستارة من الدخان كغبش الصبح. فرك عينيه وحدق بتركيز. زاد الغبش عما قبل. ولم يعد يرى أحداً بينما غابت الوشوشة نهائياً ولم يعد يسمع أي عزف.

– أية حيرة ألقيتني فيها يا رب؟ هل إن ما مررت به من فقد زوجتي وأولادي وصهري وحفيدتي هو الكابوس أم أنني الآن أعيش كابوساً حقيقياً؟ كيف سأتبين الحقيقة؟ هل أنا في باص فعلاً؟ هل صحيح تم تهجيري مثل غيري وترحيلنا على متن حافلات خضر صاروا يعيرننا بها؟ يا رب إنه ابتلاء منك فأنقذني منه.

مد يده إلى الحقيبة، أخرج فستان العرس من جديد وصار يشمه بحزن ثم يضمه إلى صدره، نظر إلى مجموعة الصور التي بجانبه ثم حانت منه التفاتة إلى جهة السائق.

تجمد من الرعب.
كان الباص يسير من دون سائق. شك في أمر عينيه. فركهما من جديد، أطبق جفنيه لبضع ثوان ثم فتحهما فلم يجد أثراً للسائق.
التفت إلى يمينه ليتأكد من أن الباص يسير، فازداد رعباً حين رأى أن نافذة الباص تحولت إلى مرآة كبيرة. دقق في وجهه فلم يجد ملامحه. كان وجهه خالياً من الأنف والفم والعينين. فقد أبو ليلى وجهه. مد يده بخوف إلى أنفه وفمه ثم عينيه فوجد كل شيء في مكانه. عاد للتحديق في النافذة فتكرر الأمر: وجهه سطحٌ مستوٍ بلا ملامح كأنه نصف بطيخة. خفق قلبه بعنف حتى سمع دقاته وكاد ينخلع من صدره. نظر مرة أخرى إلى جهة السائق فلم يجد أحداً.
شعر بجسمه ثقيلاً متخشباً ملتصقاً بالمقعد لا يستطيع أن يبارحه. لم يصدق ما رأته عيناه حين نظر إلى جهة السائق.
– غير معقول ما يحدث هنا. خلصني يا رب.
ابتهل إلى ربه ونظل يحدق في جهة السائق.
كان الباص الأخضر يسير بلا سائق. يسير بجنون، يسقط في هاوية سوداء لا قرار لها. ما من أحد يقود هذا الباص. لم ير في مقعد السائق سوى كتلة صغيرة من السواد المرتعش، صارت تلك الكتلة السوداء تكبر بسرعة كبيرة وفجأة انطلقت بضعة خفافيش وطارت باتجاهه، صارت الخفافيش تضرب وجهه الذي فقد ملامحه بشكل عشوائي ثم تكمل طيرانها إلى مؤخرة الباص.
بعثرت الريح التي أثارتها الأجنحة الغشائيةُ الصورَ التي كان أبو ليلى يتمعن فيها قبل قليل، طار فستان العرس الأبيض من بين يديه. حاول أن يأتي به ليضعه في الحقيبة، أراد أن يجمع الصور من جديد لكنه شعر بشلل تام. أراد أن يصرخ فشعر بحنجرته مخدرة. لم يعد أبو ليلى قادراً حتى على تحريك عينيه. صار تمثالاً من الشمع. بقيت نظراته الجامدة معلقة إلى الأمام فيما بدت الطيور المرعبة كأنها تنبع من المقعد لتصبح نهراً يتدفق باتجاه المؤخرة حتى امتلأ الباص بأسراب وعناقيد لا تحصى من الخفافيش.

5.2.2018

---

1)) التات جماعة من الناس في منطقة عفرين تتحدث العربية غير أنها مجهولة الأصل العشائري.

2)) مفردها سرفيس وهي باصات نقل صغيرة تتسع لأربعة عشر راكباً. يستخدمها المواطنون والطلاب بشكل خاص بسبب الأجرة الرخيصة وسرعة النقل.

3)) هكذا يسمى كل مشفى أمراض عقلية في حلب. والدويرينة حي كان يقع فيه أكبر المستشفيات التي يتعالج فيها المرضى النفسيون في سوريا.